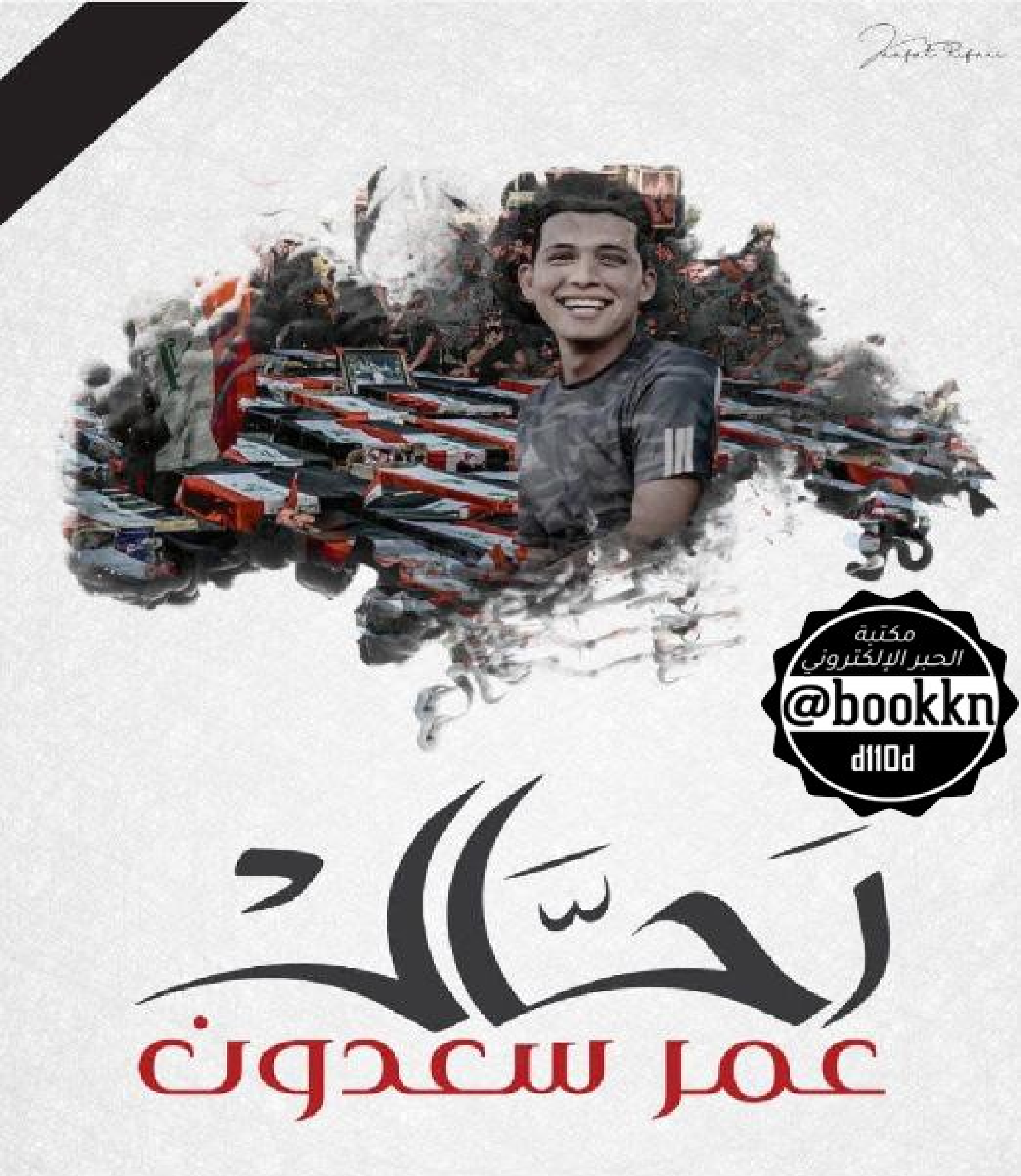


للكاتبة
ختام صافي الياسري

رحّال، عمر سعدون

رحّال، عمر سعدون

ختام صافي الياسري

تدقيق لغوي: هالة جمال الدين

رقم الايداع في دار الكتب و الوثائق العراقية 3627 لسنة 2020

الطبعة الأولى - العراق - بغداد 2021

Isbn : 978-9922-9453-7-8

اصدارات جسد

E.mail: jasad.library@gmail.com

هاتف جوال : 9647828424910 +

الإهداء..

بـِالكلماتِ جمعتُ دموع الأمهات المُنكسرات، بألم الفقدان، إلا أنني جهلتُ أن الدموع لا تترجمها الأحرف..

ختام صافي الياسري

افترشنا الورد فوق القبور، من منا يفترش الحزن كل عام بغائلةٍ تجعلنا مثكلين بها. ننتكس ونثور بأصواتنا ونعود للصمت الطويل، حتى رسموا على الجدران كلمات «نريد وطنًا"، فرآها الغيور وقلبه النقي، فانتفض، وشاركه كل من في قلبه الروح الوطنية، حتى أصبح اسمهم ثوارًا، وكل أصوات الثائرين المطالبة بالعدل تُحارب. لأننا وبكل بساطة في وطن يقتل كل من يحاول أن يجعل هذا الوطن مستريحًا. قتلوا أصواتنا، وقتلوا أولادنا، وما كان منا هذه المرة إلا أن نصرخ عاليا، لأن زمن الصمت انتهى، وجاء زمن الانتفاضة. صرخنا بصوت، أيها العالم انصت لصوتنا، ويجب أن تستجيب لمطالبنا أنفًا عليك وعلى ظالمينا. نحن بيدنا التغيير. ونسجنا من دماء الشهداء كلمات أدبية لا يفقهها إلا من قلبه في هذا الوطن معلقٌ، ونحن نعطي الدم مقابل العدل. فخرجنا بشهداء لن يمحيهم التاريخ ولن ينساهم الواقع وسيبقون سادتنا للتغير وأملنا لنهضة الأرواح الصامتة. وها نحن نخلدهم بكلمات ممزوجة بالخيال والواقع لتبقى أرواحهم كعبق الأزهار لا ينمحي.

شمدريني
الوطن لو ثار يأخذ كل حلم مني!

كرار حسن.

كنتُ أنظر إلى الأجساد التي على الأرض، والدماء التي على الطرقات وعلى الجدران، كان كل شيء عبارة عن موت. يحيط بي هنا الدمار واشلاء الأجساد التي حولي ملقاةً على الأرض ووقعت عيني على جسدي نظرتُ اليه بدهشة! إلى الجسدي المُلقى أمامي، وعيناي مَفتوحتان على وسعهما، أشاهد هذا الجسد وتساؤلات تملأ أرجاء عقلي. وكان هُناك صَوتٌ مِن بعيد يُنادي وكأنه يركض، فقد بدى على صوته أنه يلهث ويُنادي:

- رحاااااااااااااااااااااال!

ولفت أنتباهي صوت قريبٌ مني ينادي ‘‘عموري’’ اكعد الله أكبر، شلون گتلتو! ولكم بعده صغير.

وآخر يصرُخ:

- عمور ماتتتتتتتت، تعاااااااالوا نشيله شَباب بساع.

لا أعلم كيف أخبرهم أن الرصاصة التي اخرقت رقبتي لم تقتلني وأني حيّ، ولكن لا أحد يُشاهدني، لِمَ لا يرونني؟! ذهبتُ إلى حامل جُثتي أربت على كتفه.. ياصاح، أنا حي لم أمت، انظر إليّ واترك هذا الجسد المُلطخ بالدم، وصَرختُ بــوجهه بِصوتٍ عالٍ:

- هيا ارمِ هذا الجسد، إنه ليس أنا، لا تدعوا أمي تراه، وتظن أنني مت، هيا يا صاحبي، ارمِ هذا الجسد قبل أن تعلم أمي بِه، ولكن ما من مُجيب على ندائي، جَثوتُ على ركبتي حَيث أتى أحدهم يصرخ:

- عموررررررررر، شلون تروح وتخلينا وحدنا من دونك هم تكمل الثورة وأنت ما موجود؟

أجيبهم، ولكن لا أحد يسمع، والصَّوت اللاهث يقترب مني وصراخه يزداد بِـاسم رحّال.. لا أعلم كيف مرت هذهِ اللحظات، جَلستُ على رُكبتي ووضعتُ رأسي على الأرض وأضرب بـيدي عليه وأصرخُ عاليًا:

-لِمَ لا تسمعونني؟ أمي سَتحزن حين ترى هذا الجسد الذي الذي اخترقته الرصاصة ظلمًا من الأيادي الجائرة.

الصوت الملهوث والذي يصرخ بِاسم رِحال أصبح خلفي وتمتم بهدوء بأسم رِحّال رفعتُ رأسي إليه وبِــدهشة نطقت:

- أنك تراني اليس كذلك؟

أجاب ذو الوشاح: أجل أنا أراك، وليس أنا فقط، هناك عديد من الذين يستطيعون أن يروك. (وكان يبدو على وجهه المحبة واللطف والعطف).

أجبته: إذن أخبر هولاء أن يرموا هذا الجسد ولا يخبروا أمي.

ودموعِي تنساب على خدّي وأمسح أنفي بــِمعصمي مِن فَرط الحسرة.

ذو الوشاح: معذرة منك نحن الآن لا أحد يشاهدنا أو يسمعنا، فنحن في عالم الذي كنا نطمح أن نصل إليه ونرتاح من قساوة الحياة.. هون عليك فـمازلت في أول ساعاتِ رحيلك عن الدنيا، كل ما عليك فِعله أن تهون على نَفسك، نحن في انتظارك منذ أيام، أنا والأصحاب. وأشار بيده لِجهة مقابلة، نَظرتُ حَيثُ أشار، فرأيتُ كثيرًا من الشباب الذين يلوحون بأيديهم ومبتسمين لي، لاحظتُ عديدًا منهم كنتُ قد شاهدتهم مِن قبل في مكان ما، ولكن أين رأيتهم يا تُرى؟ وكيف لي أن أتذكر في وضعي هذا الذي يرثى له. قلتُ له بِصوت يائس حينها:

-لا يهمني أيّ أحد، كل ما أريده الآن ألا يذهب ذاك الجسد إلى أمي.. سَتحزن وأنا لا أقوى على حزنها.

ذو الوشاح: لن يهدأ بالك، ولن يطمئن قلبك حتى تُشاهد أمك، اذهب إلى أحضانها وهوّن عليها وامسح دَمعها حينَ تُشاهد جسدك المرمي أمامها الذي لا تسكنه الروح وشاحب الوجه، وابتسامتك المخفية خلف سِتار الموت.. اذهب، نحن بانتظارك (اعتلت على وجهه ابتسامة كأنه يقول ليّ مِن خلال عينيه: أنا معك ولن أتركك نحن لك بعد عائلتك وأحبابك).

وقفتُ على قدمي حيثُ لا أقوى على البقاء، فَـداخلي يلهبُ نارًا.. قلبي عند أمي فسيُفجع قلبها حين ترى جسدي الضرير فاقد الروح، هربتُ مسرعًا وأصرخ: ذاهبٌ لأمي مُخبرٌ إياها أنني بِــخير.

ذهبتُ إليها مسرعًا وكأنني أعلم أن أمي ستفارق روحها جسدها حين ترى جسدي.. حتى وصلت إليها، شَاهدتها وهي تَصُكُّ الوجنتين وتُدمع العين، لم ألحظ أهلي ولا حتى أصدقائي.

كل ما شاهدته أمي الجالسة عِند جسدي المليء بِـالدماء. أغرورقتْ عيناي بالدمع عند رؤيتها مُنكسرة.. أجل، لقد كسرتها بِـرحيلي. هذا ما تمتمت بِه.

أسمعها تقول:

- يمه هضيمه تروح، مو أبوك من راح هد حيلي.

يمه أكعد لطول النومة بعدهي ملابس الدوام متنتظرك حتى تلبسها، يمه اكعد أريدك تفتح عيونك وتكلي، يمه اني يمك وشحلاتها اليمة منك.

تَقربتُ إليها بِـبطء، أخاف أذيتها باقترابي، على الرُغم من أنها تُنادي عليّ أن أرجع، انحنيتُ عليها وقبلتُ رأسها، مَسكتُها مِن يديها.

همستُ بأذنها. يا أمي، اترُكي هذا الجسد، اتركي هذهِ الدماء، ما قتلونا، لا تستمعي لِمَا يدور حولك، يا أمي نحن لا نموت لقد نقشنا على القلوب، كما ينقش النحات على الحجر. تعالي نعود أنا وأنت حيث يوم ولادتي الذي لطالما قصصتِه عليّ كثيرًا لدرجة أنني حفِظتهُ عن ظهرِ قلب، تعالي نسرح بِـالخيال ويدانا مُتشابكة. أحاول قدر الإمكان أن أنتشلها من الحزن الذي يسكنها.

قلت لها: أتذكرين أنكِ أخبرتِني عندما عانيتِ من ألم المخاض بِـرفقة والدي، وبعد ما عانيتِه من ألم رُزقتِ بي.

قاطعني صوت أمي حين نادت بصوت عالٍ:

"يا يمة شلتك بطني تسعة شهور وتعبت وأنا أربيك وتروح مني بهالسهولة باكوك مني، ظلمة من دونك يا يمة" وتصرخ وتبكي بصوت عالٍ.

ثُم أردفتُ بِقول:

يمة أذكر آتى إليّ أباك يا أم علي ماذا نسمي ولدنا فقد رزقنا الله بولد يحمل ضحكة تعيد الشمس وإن غابت. قلت له ولدنا الكبير اسمه عليّ، ما رأيك لو سميناه عمر، لنرسل لهم حكمة غير مباشرة أن الدين واحد وربنا واحد مهما اختلفت أسماؤنا وطوائفنا.

أبو علي: إذن لا بأس، نسميه هذا الاسم الجميل جِدًّا.

وعيناها تذرف من الدمعِ أشده. ذهب لِيسجل الاسم في بياناتِ العائلة لِتسأله الممرضة ما اسم طفلك الجميل هذا؟

ليجيب: اسم بطلنا الجديد عمر سعدون شتام المولود في يوم الخامس من شهر آذار لسنة ألف وتسعمائة وثمانيةٍ وتسعين.. وعادَ إليّ يُردد "أدام الله ضِحكته التي تشبه الجندي العائد من الحربِ منتصرًا.

كانت تلوذ أمي يمينًا ويسارًا باكية وتردد: كان هادئًا لا يعرف للمشاكسةِ طريقًا. ولِـجمال طبعهِ كأنه خُلقَ مِن ملائكة السماء. وعيناها لا تصومان عن الدمع. قلتُ لها بِمحاولة طمأنتها: أمي، اشعري بِـروحي كيف تلامس روحكِ، كذِبًا ما قالوه لكِ، الأموات أرواحهم لا تصعدُ لِـلسماء، تبقى مُلتصقة بـأحبابهم، نحن لا نموت مخلدون كما يخلد التاريخ الأبطال.

كُنتُ أحاول أن أشعِرها بِـوجودي، ولكن هباءً ما أفعله. انتكست روحي مِما جرى لأمي بسببي على الرُّغم من فرحتي بِنيل الشهادة. وضعتُ يدي وأنا أضغط فيها على رأسي راغِبًا أن أصرخ، ولكن لا جدوى مِن صراخي، راكضًا لخارج المنزل. تذكرتُ حالي وأنا ألعب مع أصدقائي أمام منزِلنا حين شاهدتُ أطفالًا صِغارًا يلعبون. وسرحتُ بِـخيالي حيثُ سقطت الكُرة في منزلنا، وكانت للأطفال الذين يلعبون في الخارج، استقرت في حديقتنا، وشاهدتُكَ يا والدي في تلك الأثناء حين كنت جالسًا في حديقة المنزل. تنظر إليّ وأبتسم قائلًا: تعالَ خذها لك يا ولدي واعتبرها لك، ولكن انظر لمن هي من الأولاد، ومِن شِدة حُبي للكرة حين ذاك وضعتها قربَ صَدري وأبيتُ أن أعطيها لهم، لـرُبما كانَ عِناد أطفالٍ يسري بداخلي، خرجتُ إلى الأطفال الذين يلعبون، وقلتُ لهم: سَقطتْ بِـمنزلنا فأصبحت ليّ، وأنا من يتحكم فيها، أما أنتم تلعبون بها فقط. أنا سيدها، كُل ما صَدرَ مِنهم هو التَذمُر، ولكن كلام الأسياد هو الذي سادَ وأصبحتُ أنا المُتحكم فيها. حتى كَبرتُ وأصبحت كرة القدم عِشقًا مَا لي سِواها. ومِن حِينها والكرة كل عالمي. الرياضة جعلتني كالمجنون، كنت أسيرًا بعشق الزوراء وبالطبع أسود الرافدين. كنت أمسك زمام الأمور في مجموعات الفيسبوك لي صداي وكلماتي التي ترن على مسامع جميع عشاق كرة القدم. كنت عاشقًا كما تطير الكرة لتسجل الهدف في الدقيقة الأخيرة من الشوط الثاني (ذكريات تجتاحني كما تجتاح الرياح القاسية اليتيم الذي لا يملك مأوى)

لَم أعلم، أأعود لأمي وأبكي معها أم أجلس هُنا أنتظِرها تنساني؟ كانت تأخذني الأفكار وتُعيدني حيثُ بدأتُ، وفي النِهاية قررتُ أن أعود إلى جانبها حتى تشعر بي. عليّ أن أواسيها وأخفف حُزنها،

حتى وإن لم تلحظ وجودي، يكفيني أن أكون بقربها. إلا أن صوتًا غريبًا قطع أفكاري في ذلك الوقت، وبصوت منه قال لي:

-توقف، تعبتُ وأنا أبحثُ عنك مُنذ يومين، أين أنت يا رجل؟

التفت إليه حينها وبِنظرةِ استغراب قلت له: ألستَ أنتَ عباس؟ عباس الذي حاولتُ أن أحمل جسدهُ قبل أن أموت؟

أجاب: أجل، أنا عباس الذي سقط متأثرًا بِجراح، ولكني هرعتُ إليك حينَ رأيتك تسقط، أردتُ حملك. كم كان المنظر مُروعًا حينَ رأيتكَ تسقط، حين استقرت الرصاصة في كتِفك كان المنظر مُرعبًا، لم أعلم هل أنطلق بِـوجههم صارخًا وأنا مُجرد روح بِلا جسد؟ حين خطوتُ نحوي تنقذ جسدي من الرصاص الذي لا نعلم من أين يأتينا؟! أتعلم ماذا تذكرتُ الأن؟ تذكرتُ والدتي التي أغلقت عليّ الباب هذا الصباح حين ذهبتُ لغرفة استقبال الضيوف وجلستُ فيها ولم تَمضِ ثوانٍ حتى أغلقوا الباب خوفًا من أن أخرج، جلستُ ولم يهدأ عقلي من التفكير، أخذت أمشي في الغرفة يمينًا ويسارًا إلا أن التفكير أخذ ينخر في خلايا عقلي، فتحتُ هاتفي أشاهد البث المباشر الذي أطلقه عدد مِن أصحابي، وكيف يقتلونكم دون رحمةٍ أو وعي بأحلامكم، أبيتُ أن أجلس بالمنزل والجدران تُحيط بيّ مُختبئًا، كما تختبئ الطير مِن الصياد، كنتُ أنا "يوتوبر"، وكانت جميع فيديواتي تَحملُ رسالة ذاتَ فائدة لهذا المجتمع، ولكن حان الوقت الذي يجب فيه أن أخرج واصنع أملًا وصوت العدل الذي فيه أكافح الظلم وسلب الحقوق، أتعلم أني أصغر منك!

سألته: كم عمرك يا عباس؟

أجاب: أنا مواليد ألفي حلم ورصاصتين قتلت الأمنيات.

تبسمَ قائلًا: أنا في اليومين السابقين علمتُ فيهما أنني ميت! ومُفارق دُنيانا تِلك وأيّ دنيا قتلت شبابي الذي لم أعش منه حلمًا واحدًا، ولكن أمي التي أغلقت الباب وذهبت وهي مُطمئنة أنها ستعود لِتجدني في تلك الغرفة يائسًا وأخطط لأحلامي حتى يأخذني النوم في أحد زواياها، وخيبتها حين تسللتُ خارج المنزل دونَ أن تُلاحظ ذلك أو أيُّ فردٍ من عائلتي، والتحقتُ بِكم، شاركتكم الهرولة من هنا وهناك، والهروب من الأيادي الجائرة. والرصاص الذي ينهمر علينا كالمطر، حتى رأيتُ صديقي حيدر علي وهم يضروبونه، وأرجلهم وأيديهم تدوس عليه وتعذبه وهو يصرخ ويكاد صوته ينتهي من شِدة الضرب، لم أستطع أن أقف مشاهدًا، هرعت إليه سريعا وجمعتُ بيدي عديدًا من الحجارة، لكن لم أستطع أن أرميهم بها، أخفض رأسه وتمتم بِـصوت مخنوق: تبخرت أحلامي وأبكيتُ أمي، كنتُ أريد أن أكون «يوتوبر" ذا صوت مسموع في المجتمع، وذا رِسالة، فما كان إلا أن اخترق البارود قلبي وأماتَ أمنياتي، فتحتُ عيني وأنا أشاهدُ جسدي على الأرض.. وأنت قادم نحوه لِتحمله وترمي بِـالحجارة، ولكن سريعًا سقطتُ على الأرض ضريرًا، رأيتُ كُل ذلك.

قُلتُ له: إذن الرصاص سرقَ أحلامنا في الوقت ذاته، ونحنُ الآن نعيشُ مرارة الفراق، سادَ الصمت بيننا، ودموعنا تنهمر على خدينا، لم يعد للكلام مجال هُنا، فقد مات الكلام مع الأحلام.

بعدَ وقتٍ قَصير كسرتُ الصمت الذي بيننا وقلتُ: له إذن اذهب لأمك وأخبرها أن النوم بين جُدرانٍ أربع ليس من شيم الرِجال.. والصوت الحق لن يُسكِته الخوف، وإنك فعلتَ هذا من أجل أن

يعيشَ هذا البلد بِسلام ويضمن الحقوق لجميع الناس وبعيدًا عن كل النِزاعات، أذهب إليها وأخبرها أنَّ عليها الفخر بابنها البطل.

رَدَّ عليّ عباس: أنت أيضًا أذهب لأمك وأخبرها بأنها لم تودعك إلى القبر، إنها ودعت بطلا للجنة، وأهدت الوطن سببًا لإكمال الثورة.

عمر: إذن إلى اللقاء، نلتقي في وقتٍ لاحق.

عباس: في أمان الله أيها الشجاع.

الموت أجمل في بلادي
لا يتعب الميت
نحن نموت بالجملة

"محمد وليد"

دَخلتُ المنزل بِـخطواتٍ مُثقلة وكاهلٍ مُتعب مِن شدة الحُزن بِمَا يحصل لعائلتي بِـغيابي، تَجمعات العائلة التي كانت تملأ أرجاء المنزل، أصوات الضحك والمزاح الذي لا ينتهي.

لاذت أمي يمينًا ويسارًا، وتبكي، تُردد: يا رب! كيف يُمكنني العيش دونَ ضِحكتهُ الدافئة وحضوره المليء بِـالحنان.

جلست إلى جانب أمي أختي الكبيرة قائلةً لها: يا أمي، لا أعلم أأواسيكِ وأمنعكِ مِنَ البكاء أم أمنعُ نفسي؟ أم نستمر بالبكاء طِوال العمر؟ أو يبقى بيتنا بيتَ عزاء، أعلم مَدى وجع قلبكِ، فأنتِ الأم. لا أعلم كيف أربت على قلبكِ المفجوع؟ ولدكِ الصغير زُفّ إلى الثرى بدلًا مِن أن يُزف إلى عروسه!

كانَ البردُ قارصًا، وكانت عائلتي مُجتمعة حول المِدفأة وأمي الوحيدة من تُردد: يا ولدي، أأصابكَ البرد؟ أم أنك بحالٍ أفضل يا ولدي؟ أرجوك طمئن قلبي على حالك. التفتت لأختي تقول: كنتُ أشتري له الملابس بين الحين والحين، وكل قطعة أحُضِرها له كان يلبسها على الفور ويُزيدُها جمالا وأناقة ويقول شاكرًا لي: يا لجمال ذوقكِ الراقي يا أمي، ما هذا الرقي يا أمي. وكلمات تَفيضُ حُبًّا.

وعادت بي الذِكريات إلى الأيام حيثُ كنتُ صغيرًا، كانت أمي خارجة، كان عُمري حوالي الحادية عشر سنة، عادت تحملُ بيدها عِدة أكياس، كنتُ أشاهد التلفاز في ذلك الوقت، وحين دخلت المنزل بعباءة رأسها العِراقية الجميلة "العباءة السوداء كالليل، وتزينها المرأة بداخلها كالنجمة المتلألئة"، تحمل بيدها الأكياس، هرعنا إليها أنا وأخي وأختي معا، حتى وإن لم تَجلب لنا شيئًا، نُحب أن نرى ما أحضرت معها من متاعٍ، أعطتني قميصًا مع بنطالٍ جميلٍ كان ذا لون أخضر غامق (زيتوني، والبنطال كان جينز أزرق)، أرتديتمها، وأصبحتُ أتجول في أرجاء المنزل أتباهى بأناقتي وذوق أمي الذي يَعج بالفخامة.

قُلتُ لها سعيدًا: لن أخلعها، سأذهب بها إلى أصدقائي.

وجاءتني مسرعة تقول بِنبرة حَذَرٍ: لا يا عُمر، لن تَخرجَ بها اليوم.

أطعتُ كلامها وخلعتُ الثياب. وفي يوم التالي، وضعتُ أطيب العطور ورتبتُ شعري وأرتديتُ تِلكَ الثياب، وخرجتُ بها للشارع وأمشي مُتفاخِرًا بها وكأنني ارتديت العيد.

عادت أمي مِن ذكرياتها، وعدتُ معها أنا أيضًا، جثوتُ على ركبتي ووضعتُ جبيني على رأسها، ولكن دون أيّ شعورٍ منها، تبكي، وما بيدي حيلة غير أن أواسيها دون أن تَشعر هي بِذلك.

تلت كلماتها بِصوتٍ مشحونٍ بالبكاء: كان شغوفًا قويًا ومجتهدًا. رددت: أتذكرين يا ابنتي حين توفي والدك، كان عمر في المدرسة الابتدائية في الصف السادس، كان أبوه في تلك الأثناء على فِراش الموت يُعاني، ومنزلنا يخيم عليه خوف الفقدان، ولكن ما هي إلا أيام حتى توفي، حينها كان في المدرسة وأخبروه أن والدك انتقل إلى جِوار ربه، جاء إلى المنزل مسرعًا عسى ولعل كلامهم كذِب! ولكنه صُدم حين دخل ووجد أنَّ والده ميت بالفعل والخبر الذي رَنّ في أذنه قبل وقت قليل حقيقي وصادق، اعتلى قَلبه الحُزن، إلا أنه كان قويًّا مُتماسِكا.. وقفَ صامتًا دون أيّ كلام، كَانت عيناه تذرفان الدموع بِدون توقف، كان أول حزنٍ يصادف حياته، وليس آخِره، جلس بعتبة الباب

يبكي بِصمت، وكان صديقاه يقِفان حوله يدوران بحزن لا يَمتلكان أيّ كلمات مواساة، سأل صديقه: هل سيعود والدي؟

نظر إليه صديقه وأطبق فمه دون جواب، حاول أن يزيح التراب يمينًا ويسارًا بطرف قدمه.

وفي تلك الأثناء جاء إليه أخوه الكبير عليّ وجلس جانبه وقال له: إن الحياة أتعبته وذهب عند ربك ليرتاح.

لطمتُ على الوجنات، وقلت لأخي بيتنا أصبح بلا خيمة؟ وإن عمدة هذا المنزل قد ذهب، إننا بقينا بلا سند؟

أجابني أخي علي: لا عليك يا عمر، نحن إلى جانبك وسيكون الرب بعوننا على هذه المصيبة.

كان الحزن واضحا مُستوطِنًا في أرجاء المنزل وجميعنا يبكي، وأمي كانت تعول وتنتحب على هذه المصيبة التي حلت على رأسها، كيف لها أن تحتمل فراق من كان لا يحب أن يأكل إلا وهي بجواره؟

يا إلهي، كيف لهذه الروح أن تعيش دون أحبابها.. يا الله هونّ عليهم فقدي، فوالله ما كانت نيتي إلا وطنًا فيه كل الأمان والسلام.

أعقبت أمي كلامها: على الرُغم من فاجعة فقدنا لعِماد منزلنا وسنده، إلا أنه اجتهد.. وعلى الرغم من النقص الذي خلف فقد أباه إلا أنه اجتهد وانهمك بِــدراسته وجاءنا بِمعدل عالٍ، حيثُ أمضينا أيام الامتحان بين القلق والخوف مِن أن يخفِق في امتحانٍ ما. ولكنَ خبر نجاحه ملأ البيت بِـفرحةٍ عظيمة، حيث أخذناها من شبكة الإنترنِت بِــمعدل واحد وتسعين، والثاني على مدرسته.. مدرسة النضال الابتدائية.

إن الفرحة بعدَ الحزن تكون كالتعويض إلهي.

أقولُ

أنا شَيءٌ كما كان

لم يكن!

ومُذْ جاءَ مِنْ بدءِ الخَليقَةِ راحِلُ

علي أجود.

بخطىً مُثقلة وبال شارد، ما بين البين، كنت أفكر هل أمضي في هذا العالم الذي لم يعد لي حَيزًا فيه؟ والجسد الذي أصبح الثرى مسكنًا له، أيّ روحٍ هذه ترفض المغادرة وتريدُ أن تُشبع ظمأها من أحبابها. أين أذهب وروحي مُعلقة بأحبابي؟ بكاء أمي يكسر أضلعي ويجعل روحي تنزل للأرض لِـتُقبلَ رأسها وتُخبرها ألا تبكي؛ فبكاؤها يقطع قلبي، اتجول بِـخطى مُثقلة، أُشاهد هذا البلد الذي يقُتل فيه في اليوم الواحد أكثر من مائة شاب ومائة حلم ومائة عرس ، قُتل غدرًا وظلمًا، أشاهد كيف خرجت مسيرة كبيرة تأبينية على الأرواح التي طلبت السلام فأسكتها رصاصُ الظُلم، شاهد الأمهات والصبية وفتيات بألف رَجُل، جميعهنَّ خرجنَ مِن أجل وقف الدماء التي سُفكت والتي من ممكن أن تسفك نتيجة غضب الثوار لقتل الأبرياء بغير حق، عادوا أدراجهم والتزموا ورابطوا في مكانهم ساحة الحبوبي، ساحة العز والإباء، كنتُ أمر بين حشودِ الثوار، دونَ شعور منهم بيّ، أشاهِدُ الهِتافات وهم يصرخون، الخائفون لا يصنعون الحرية. وهناك فتيات يضعن العلم العراقي على أكتافِهنَّ.. إحداهن تَملكُ عيونًا واسعة، وأخرى قصيرة القامة، يتهامسنَ بينهن ويبكين. تقول لها متسألة: أشاهدتِ الفيديو الذي يصرخ فيه الشباب عن الشهيد الذي يتملك ربع دينار عِراقي في جيبه؟ وترد عليها أخرى: وهذا الشاب الذي لا يملك المال، وخرج يُطالب بحقه قتلوه من لا ضمير لهم! لعنهم الله! وكانت الحرقة الروح تنبعث بالصوت قالت ذات العيون الواسعة: وشاهدتِ كيف يصرخون «ماكو تابوت محتاجين تابوت! شكد هضيمة نموت ومانلكه حتى تابوت يلمنا" (عيناها منتفختان من شدةِ البكاء).

والقصيرة قالت: والأمر الذي جعلني أتقطع قهرًا نشروا صور الشهداء وأحدهم علق «ولكم هذا أخوي"، لو البنية تسأل وين بابا يكلوله طلع يريد وطن وانغدر بي! وكانت هناك أمهات تطوق المكان حتى لا يذهب المتظاهرون الغاضبون وتستمر الدماء بالهدر لأجل هذا الوطن.

أراقبهن يبكين، وعويلهُن يَعلو بين الأوساط، حاولتُ ألا أذهب إلى المكان الذي فيه رفاقي، لا أودُ رؤيتهم حُزينين على فقديّ، وعلى الرغم من أجواء الحبوبي الحزينة شاهدتُ عديدًا من الأرواح التي تجلس بائسة، حزينة على ما جرى لنا، لمحتُ فتىً صغيرًا، كأنه من مواليد ألفي قوة واثني صرخة ضد الظلم، يلعب بالكرة ويتناقلها بين قدميه بِـعناية كبيرة واحترافية، سِرتُ بطريقي نحوه، كان يبدو عليه الحزن بسبب الأجواء المُخيمة على الحبوبي، اقتربت خطواتي مِنه، وشعر بوجودي، التفتَ إليّ مُلوحًا مُرحِّبًا بي، نطقتُ في سري: إذن نحن الأرواح ينبعث من أشكالنا النور، والتسامح الذي يبدو واضحًا في ملامحنا..

أصبحتُ بالقربِ منه، استمر الفتى بـلعبِ الكرة، بادلني الأبتسامة وقال:

هنيئًا لك الشهادة، ومرحبًا بانضمامك بين صفوفنا.

بادلته التحية مُجيبًا: أشكرك، ولكن ما اسمك؟

أجاب الفتى الصغير: أنا أمير علي الجيزاني. الملقب حاليا بآخر حبة (وضحك حين ذكر اللقب).

قُلتُ باستفهام: لماذا هذا اللقب؟

أمير: لأني الفرد الأخير من العائلة وصغير في العمر، وكما أنني شهمٌ وأتحمل المسئولية، لهذا أنا آخر حبة لا مثيل لي.

ومازالت قدماه تحرك الكرة باحترافية، حيث إنه استرسل في حديثه:

كنتُ لاعب كونغ فو، وكنتُ أعمل ميكانكيًّا، ووطنيًّا بدرجة امتياز وبغداديًّا أيضًا.

أعجبتُ بإصراره كثيرًا حتى لاحظت أثرًا في رأسه، فقلتُ له متسائلًا: ما هذا الأثر على رأسك؟ أهو المُتسببُ في موتك؟

هَزَ أمير رأسه دلالة الأيجاب والكرة تتنقل بين قدميه حتى قال:

- أجل، كنتُ أتجهز للمظاهرات قبل أن يتم التجمع، وحين احتشدنا في بداية المظاهرات 1\10\2019، كنا نحاول أن نُساعد ونحمي بعضنا بعضًا، وحينَ كانوا يَرموننا بالقنابل الدُخانية القاتلة كُنا نركض لإحضار المشروب الغازي «البيبسي»، وقناني الماء الممزوجة بخميرة الخُبز، كُنا نحاول جاهدين أن نتجنب رصاص القناص الذي يستهدفنا جميعًا دون أيّ استثناء أو حتى رحمة، لم أكمل ما بدأناه معًا، أترى هذا الأثر الذي في رأسي؟ هذا أثر رصاصة القناص التي اخترقت جُمجمتي وسقطت في اليوم الثالث مِن المظاهرات، لم أتذكر شيئًا غير أنني كنتُ في المستشفى وبعد ستة أيام استيقظت روحًا بلا جسد.

قلت لهُ بِحُزن: أتذكر، كنت أجمع المساعدات من الناس والأغطية والأكل حتى نستفيد منها في أيام ثورتنا، كما تعلم نحن كنا نخرج وليس في جعبتنا الدينار، وما حدث إلا أن نستيقظ ونحن بلا جسد، وأرواحنا في الفضاء تعوم. وأردفت قائلًا: أتشعر بالأسى لأنك لم تُكمل الثورة ولم تحتفل بانتصارها أم أنك يائِس لأنك لم تحلم حتى؟

أجابني بنبرة قوية: لا، أنا فقط حزين لأنني لم أستطع الاستمرار والصُراخ في وجه الظُلم والفساد اللذين أكلَا العراقيين ونَخرَا عِظامهم. ولأنني ببساطة فارقت دنياي قبل أن أحصل على وطن.

قُلتُ له: أنا أيضًا مِثلُك تمامًا، رجوتُ أن أكمل وأكون جُزءًا من النصر العظيم.

أمير: أتأتي معي إلى بغداد حيثُ صوت الحق (التحرير)؟

أومأتُ له برأسي بـلا، لن أذهب، مازلت أريد البقاء. الحبوبي قبلتي لتغير وأريد أيضًا البقاء إلى جانبِ أمي كـــي أواسيها.

تركته وهممت بالذهاب إلى منزلي وأن أشبع ناظريّ من ست الكل.

دَخلتُ بِـهدوء للمنزل، تلفتُّ باحثًا **عن** أمي في أرجاء المنزل، قلتُ في سري ماذا حدث لأمي؟ أمن المعقول حدث لها مكروه؟ أخذت التسؤلات تدور في خُلدي، وعيناي لم تتوقف عن البحث، تذكرتُ أمي كيف يتعلم منها الصبر صبرًا، وكيف نستمدُّ قوتنا منها، حتى ذهبتُ بخيالي حيث نجاحي في الصف السادس الابتدائي، وكيف تمنينا وجودك يا أبي بيننا لِتكتمل الفرحة. كيف جاهدت أمي أن نكون أقوياء وأن نثابر من أجل نَيل أفضل المراتب.

أتيتها راكضًا وأصرخ:

- أميييييي أين كُنتِ؟ ستتم إقامة حفلٍ على شرف نَجاحنا الكبير.

وتكريمًا لِـمثابرتي في الامتحانات، "جِئتُ لأمي وأنا أهلهل وأقفز من شدةِ الفرح". استقبلتني بِـحفاوة، وبَريق لاحَ في عينها على الرُغمَ من الحُزن الذي استوطنهما، ولكنها سعيدةٌ بي، لكنها قالت بِـنبرة حُزن بأنها لا تستطيع المجيء.

سألتها بِـغضب: ولِمَ يا أمي؟ ألن تفرحي لفرحتي؟

أجابتني: وهل تترك الأم قطعة من روحها وفلذة كَبِدها؟ سوف أرسل معك أختك الكبرى لِـتحل مكاني وأخاك أيضًا، لأنني في العُدة الآن يا ولدي؟

سألتها: وما العُدة هذهِ؟

أجابتني: إن المرأة المتوفى زوجها، لها عدة أشهر آمِلة فيها أن تمرَ عليها ليالي السواد بِـفقد الأحباب بسرعة، وأن تكون خلوة مع ذاتها والذكريات المريرة تكتسحها وتستقر في خُلدها وتألفها روحها. تجلسُ أربعة شهورٍ وعشرة أيام، لا ترى أحدًا ولا يراها أحد، إن هذا الأمر مُقدس كأن الله يخبر المرأة بأنها أقوى لديه بألا تُظِهر ضعفها أمام أحد.

في اليوم التالي ومن شدة فرحي لم يغمض لي جفن، وأفكر بالحفل المُقام لنا، كنتُ الطالب المتفوق الذي أحرز المركز الثاني في مدرسة النضال الابتدائية.

وكيف دربتُ نفسي بتخيلاتي الكثيرة، كيف سأخطي خُطواتي أمام جميع الحضور، وكيف أثبت نفسي وثقتي بنفسي وأنا أشعر بالسعادة، لِـذلك لا أطيق الصبر حتى الصباح لِيتم تكريمي؟

وأخيرًا، طَلَّ الصباح بحُلة مُختلفة، يحمل معه أجمل المشاعر التي تبعث فيّ الفرح، كان أجمل يوم أعيشه بين فِطرة الطفولة وصخبها ولعبها وبين أن تنجز فيها شيئًا عظيمًا. أرتديت أجمل الثياب وتعطرتُ بأبهى العُطور، وخَرجتُ لأمي التي أدمعت العينين، وشعرتُ بأنها تَدّعي لِتزفني عريسًا.

قالت أمي: يمه يوم الي أشوفك خريج ومرتك يمك وتكمل فرحتي بيك.

خرجتُ بِـرِفقة إخوتي بخطوات سعيدة.. أمشي مُتبخترًا بإنجازي الصغير والعظيم بالنسبة لي. وعند وصولنا هناك دُهشت بِـجمال المكان المليء بالأضواء الملونة التي تَبعث البهجة في المكان.

نادَى الأستاذ اسمي، وقفتُ مُرتبِكًا في بداية الأمر، ثُم استطعتُ السيطرة، وتَملكتُ زِمام الأمور ومَشيتُ نَحوه بِـخطى واثقة.

تم تكريمي، وكانَ التصفيق حارًا.. شعرتُ بالفخر والسعادة لأن جميع عائلتي وأصدقائي بِـجانبي، نظرتُ إليهم وأمعنت النظرَ فيهم وأحِدًا تلو الآخر، أختي، أخي علي وأخي الصغير محمد، وصديقيّ حيدر وحسن. كنتُ فخورًا بِـوجودهم، لكنَّ مكان أمي خالٍ ومكانك يا أبي الفارغ موجعٌ.

حَيثُ بعض الأماكن لا تُسد ولا تُملأ، بعضها يبقى كـضربة في القلب مُوجعة، كأنها جُرحٌ عميقٌ لن يطيب. لن نستطيع تخطيها مهما مَرَّ عليها الوقت، ومهما طال الزمن.

عِندما عُدنا للمنزل، أختي أخذت مكان الراوي وبدأت تسرد كُل حدثٍ وقعَ أمامها، لم تَدع تفصيلًا إلا وقد قصصته على أمي، عمر كان بهذا الشكل وهكذا فعل وقال كذا جُملة جميلة.

أما عليّ فكان فقط ينظر لأختنا ولإمكاناتها العالية في السرد بعفوية وطلاقة، ابتسم قائلا لها: أريد منه يشد حيل ويطلع من المتوسطة معدل عالٍ. وغن شاء الله راح نسجله بمدرسة للمتميزين، ويخلينا نفتخر بي أكثر.

وأمي التي كانت تجول بناظريها علينا جميعًا بِـحب وسعادة كأننا لطف الله فيها. فقالت لنا وهي مبتسمة: "الله يحميكم يمه من العين ويبعد عنكم الشر".

لم نكُ نعلم أن هذهِ اللحظات هي لحظاتنا التي يجب علينا اغتنامها بـالفرح وبـالحب وبـالتلاحم، أن نُشبع أعيننا من رؤية بعضنا بعضا وأن نُشبع قلوبنا حُبًّا، لأنها وببساطة قد لا تعاد..

استفقت من شرودي حيثُ أمي، لمحتها تخرجُ من الحمام وهي ترتدي السواد بالكامل. قوتي أمام عظمة أمي وصبرها. والسواد الكائن حول عينيها حزناً عليّ خائرة. فتحتُ الباب وعدتُ للخارج لا قوة لدي لِرؤيتها حزينة.

دون إدراك مني قادتني أقدامي للحبوبي، ودون قصد أيضًا وقع نظري على تمثال السنبلة المجاور لِجسر الحضارات. أمر بين عجلات السيارة لأدخل للحبوبي، أشاهد كثيرًا من الأرواح المُستلقية مع الموجودين، أشير إليهم بيدي وألقي عليهم السلام بِـداخلي، أعلم أنهم سعداء بهذا الاستقرار الذي هم بِه والراحة التي ننعم بها. لا نفكر بالغد ولا ما سيحدث مستقبلًا، نحن كاملون الآن وثابتون، وحقوقنا رُدّت إلينا من رب العباد.. هكذا كنتُ أفكر ماشيًا بين الحشود، أسمع من يقول هولاء الجوكرية متى يعودون؟ وآخرين يقولون ذيول بس يكلولهم ارجعوا يرجعون.. أرد عليهم: إن لم تتحدوا فلن تحصلوا على الحق الذي خرجنا لأجله. ألا ترون كم روحًا زهقت. ألا تكفيكم هذه الأرواح التي قُدمت من أجلكم ومستقبل أولادكم؟ لكنهم لا يسمعونني، وإن سمعوني لن يفهموا مقصدي.. رأيت ثورة قمصان البيضاء التي كنت اول من دون عنها، مناديًا العديد من الطلبة لنصرة إخواننا المرابطين في ساحات التظاهر سمعتُ الشباب يتكلمون فيمَا بينهم:

ما نرجع إلا واحنا مأخذين حقنا وحق كل نفس راحت.

قال أحدهم ذو سُمرةٍ جميلة وبُنية ضخمة، حيثُ أحدهم صاح باسم أشرف:

صار أعظم إنجاز إذا عشنا لثاني يوم! وماذا سيحدث إن كنا نعيش والظلم سائد في الأرجاء؟

تجاوزتهم حيث إنني رأيت على الأرض أوراقًا لرسم كاركاتيري جميل جدًّا.. حيثُ كثير وكثير منها استطعت لَمسها، تحسستُها بـيدي، كان الورق ذو مَلمسٍ غريب لكِنه جميل، لم يَكُ ذو نعومةٍ مفرِطة ولا بالخشونة القاسية، لم يسبق ليّ رؤية ورقٍ مِثله البتة، وأكثر ما شَدَّ انتباهي الرسم الكاريكاتيري بـِداخله ذا الألوان الخلابة الجاذِبة للنظر.

وقع ناظري على الاسم الموضوع في الأسفل بِرفقة إمضاء جميل، إنه حُسين عادل، حُسين الذي قُتل غدرًا، هو وزوجتهُ ثاروا عليه بيد الظلم يُطرقون على أحلامه وزوجته الحُبلى، أذكرُ يوم مقتلهم حيث كان اليوم الثالثِ مِن الثورة العظيمة، حينَ فُجعنا ببشاعة عملية قتلهم، حيثُ زوجة حُسين «سارة" كانت من الثوريات البارِزات، وإحدى الُمقيمات على الثورة مُنذُ عام ثمانية عشر وألفين، حيثُ قدم وزوجته كثيرًا وكثيرًا لم يَخافا يومًا نادا وصرخا، والله يُسدد خُطاهما.

تعرضا إلى عديد من التهديدات مُنذُ بدأت مظاهرات البصرة، حيثُ اضطرا لتَرك مدينة البصرة والتوجه إلى مدينة أربيل، لكنهما لَم يتكمنا مِن الاستقرار فيها، فتوجها إلى تُركيا، ومَكثا فيها مُدة، إلا أن وضعهما المادي أضطرهما للعودة إلى البصرة، وكأنَّ القدر يُعِيدهما حيثُ كانا. كأن العراق في حاجةٍ بالغة لقوتهما، فعِندَ عودتهما إلى البصرة عاودا نشاطهما الثوري، فأضرموا الساحات نارًا بِـهتافاتِهما، وتقديمهما المساعدات ومد يدِ العون لِـلثوار مِن مشروباتٍ غازية، وكِمامات وألثمة، وكُل وسائل الحماية مِـن الموت خنقًا بِـدُخان المُسيل والقنابل الدُخانية.. ولكن لطلقات الرِصاص رأيًا آخر، فـلم يُكمل مِشوارهما الثوري، كان شَوق البارود لِـجسديهما أقوى، حيثُ استقرت في جسد حُسين سبعُ رصاصات، وزوجته سارة ثلاث رصاصات وهي حُبلى بِـوليدهما الأول، تَمَّ الغَدر بهما في منزِلِهما، وكأنها محاولة لِأسكات الحق، كانَ يومًا مُفجعًا ومُؤلِمًا بـحق.

أبكيكَ بخُلدي، لم يعد بعيني دموع
أو لندعوا الله بمعجزة تلمُ شملنا

كانت الورقة التي أحملها تحمِلُ رسمًا لِطفلٍ يَنظرُ إلى المرآة واضِعًا يده على لِحيته غير المُكتملة، تَذكرتُ حِينَ أصبحتُ شابا يافِعًا وكيف حَاولتُ مِرارًا وتِكرارًا بأن تُنبتَ لي لحية، كُنتُ ضجِرًا لعدم امتلاكي إياها، وكُنت أخبر أمي ورِفقتي برغبتي في امتلاك لِحية جميلة غير متقطِفة، وشعري المُجعد الذي لا أجيدُ تَصفيفه ولا أعلم كيفية استخدام ساحبة الشعر! كنتُ أعاني من كلا الأمرين.

وعِندَما يُصادفني مَوعِد مُهمٌ أذهب لأصدقائي حيدر وحسين لِمساعدتي في تصفيفه. يا إلهي، كم أنا مُشتاق لِـرفقتي.

لقد كانَ عسيرًا جدًّا المُكوث لحظة واحدة في هذهِ الوَحدة، جفت مدامعي مِن شِدة الشوق والذكريات التي تنهالُ عليّ كـتدفق النهر بِلا أيّة هوادة. أيام الدنيا التي عِشتها بِـصخب وقساوة الحكام. أتخبط تائهًا لا يَضمُني مكان ولا يوقفني طريق..

مَضيتُ مُتجولًا، مرتِ الأيام سريعًا والخِيم في الساحة الحبوبي موجودة، ولا يعلم من في داخلها ومتى يحين دوره للموت، سمعتُهم حينها يتكلمون فيما بينهم:

–إن الطُغاة بدءوا يغتالون كُل مَن يَحثُّ على التظاهر. من ناشط أو مؤيد لها أو أي شخص يقوم بنشر أي مقال عن المظاهرات، وكذلك عمليات الخطف قد زادت، منهم من يعود بعد أن يعذبوه وبعض يختفي أثره كحال عليّ جاسب الذي لا أحد يعلم أين اختفى، أقتلوه أم مازالوا يعذبونه؟ فيرد الشابان: فـنحن هُنا لن نتراجع أو يُرهِبنا ظُلمهم، من رحل فليرحمه الله ويتقبله شهيدًا.. ومن بقي فـيحفظ الله ورِعايته، فأرواحنا رخيصة والعِراق غالٍ.

كانَ هُناك فريق يُسمى ب «فِرقة مُكافحة الدوام» وظيفة هذا الفريق أيقاف العمل الحكومي من مُزاولة أعمالهم حتى تحقيق مطالب الثورة، إن المراد من هذا العمل هو أن تتوحد الجهود لتحقيق المُراد. تَحقيقًا لوَحدة الشعب وتكاتفه. وأن يوقفوا عمليات الدولة حتى تلبي مطالب الشعب الواحدة. كان الشُبان يُصورون ثورتهم بطريقتهم الخاصة، ففبداية كل يوم جديد يضعون في الطرقات عجلات السيارات وينادوا هيا تكاتفوا معنا لنمنع هذا البلد من ان ينهب اكثر من السابق لنكن معا لنوقف الخراب الذي قضى على عراقنا، ووضعو عدد من القوانين. الأمر مُضحك، حيثُ قام الثُوار بِـوضع كثير وكثير من القوانين التي أصبحت سائدة في البلاد والتي نَظّمت سير الأمور خِلال أيامٍ قِلال في حين أن الحكومة طِوال سِتة عشرة سنة بِـحُكامها وكل القادة الذين مَروا خِلال السنين تِلك لم يقروا قانونًا واحدًا يسير عليه الشعب. أمضي متجولًا في الطرقات، ألقي نظرة عن كثب لِداخل المخيمات، إحداها كانت خيمة المواهب، كان فيها عديد من المواهب، منها الرسم والكتابة ومن بينِها كانت تتزين بِصور من فارقت أرواحهم الدنيا في سبيل هذا الوطن، وكانت في الخيم الباقية يجلسون ويتكلمون عن أسرارهم وسط ضَحكات عالية، وإذا حَلّ عليهم الليل جلسوا يطهون ويشربون الشاي، ومنهم من يتخِذ من الزاوية ملجأ ليتكلم مع حبيبته أو يطمئن أمه عن أحواله.. التي لا يعلم بِحالها إلا من معه ورب العباد.. رفعتُ رأسي ونظرت لِلّوحة التي تَّزين إحدى عِمارات ساحة الحبوبي مكتوبٌ عليها عبارة «الخائفون لا يصنعون الحرية»، كنتُ احملتها في يوم مِن الأيام، حين كان صوتي عاليًا مطالبًا بِحقي. اتخذتُ طريقي للصعود لأعلى العمارة لأكون بِالقرب

مِن هذهِ العبارة، ولكي أنظر إلى جميع جهات الساحة، صاح المؤذن "الله أكبر"، تهيأ جميع الناس لأداء صلاة المغرب من داخل الخيم وأيضًا بداخل المسجد.

دونَ شُعورٍ مني، أغمضتُ عيني ولم أفق إلا على صوتِ صرخاتِ "الله أكبر ولكم حلركو ولايته» بوسط نيران عظيمة مُشتعلة وكُلما حاولوا إخمادها ازدادت لهيبًا. حاولوا أن يُخرجوا مِنها أمتعتهم ولكن هباءً ما حاولوا. صارت الخيم كالفحم الأسود والنارُ مُلتهبة، ومازلوا مُستمرين بمحاولاتهم من أجل إخمادها، يَصرخون "ولكم حركو خيمنه" ويسأل أحدهم الآخر: هل هُناك أذى؟ ليأتي الجواب فقط بعض الأصحاب مصابون بحروقٍ بسيطة، ولكن اختفى ما كان بمثابة بيت لنا! ألهذهِ الدرجة نُرعِبهم؟ ألهذا الحد راغبون في القضاء علينا وبأشنع الطُرق؟

كنتُ أسمع صُراخهم ونداءاتهم المتوالية ليكون الله بِعونهم، أصابتني القشعريرة من هول ما رأيت، ارتفعت أصواتهم عالية تُردد «هيهات أن نعود دون حصول المطالب ولو حرقتونا نحن بدلا من الخيم، وهيهات لكم الفرار من قصاصنا القاسي"، وعيونهم تدمع دمًا على ما حدث حتى صارت أنهارًا تجري تحتنا ولم تسكت ألسنتهم عن الترديد.. وكنت مُتردِّدًا ما بين الألم الذي في وجداني وما بين سؤالي: يا الله، متى سيعيش المحب لهذا البلد دون أوجاع؟

ثار بِقلبي الألم واتقد اللهيب داخلي.. وقفتُ رافعًا رأسي وكِلتا يدي للأعلى أصرخ بِحرقة قلب: يا اااااااالله يا ااااااالله، ارحم سكان هذا البلد، الثكلى أمهاتهم، والمرملة نِساءهم.. وقلوب الفتية المُكللة بالمصائب.

مرَّ الوقت سريعًا وبِفعل الأحداث التي جرت والمشاهد المُرعبة المليئة بالحسرات والخوف والدهشة، لا أحد يستطيع أن يُترجم ما حدث، كما لو كانت ضربة قاسية موجعة جِدًّا. ولكن ما لم يعلموه أن الضربات القاسية تتبعها ضربة معاكسة أقوى منها؛ فلكل فِعل ردُّ فِعل مُساوٍ له في المِقدار ومعاكس له في الاتجاه، حيث أطفئوا الحريق وجلسوا يفكرون ما الحل الأنسب لوقف حالات الحرق المستمرة؟

اقترحَ أحد الأشخاص في خيمة عرين الأسود: إن حرقوا قِطعة قِماش وأعمدة حديدية، لنبني لنا بيتًا من الطابوق وننظر كيف سيحرقونه؟ وبدأ الضحك مكرًا وتحديًا لكل من يحاول إيقافِهم.

وخلال ساعات فقط بدأت الناس تحضر لهم الأغطية والملابس، وتُحضر لهم ما يحتاجون حتى حان منتصف الليل أحضروا الطابوق والمعدات، ويعملون كأنهم يبنون بيتًا ليعيشوا في أمان وكأنهم لم يمرَّ عليهم قبل ساعات حريق قد يودي بحياتهم، كم أنتم عظماء.

وقفتُ وصفقتُ لهم تصفيقًا حارًّا.. ناصريتنا العظيمة.

"متروسة عناد ناصريتي"

عملوا بِجدٍ مِن أجل البناء. وينادي أحدهم الآخر، وأخيرًا، سنتخلص مِن برد الشتاء الذي أكل جنوبنا، ونستطيع أن نجلس بدفء داخل حجرة تضم قلوبنا المليئة حنية.

تسلل أحدهم بعيدًا عنهم حاملًا بيده هاتفه.. أجاب وبِصوتٍ جريء جدًّا قال: تعلمين يا أمي أنني لن أعود للمنزل حتى تنتهي الثورة أو أن أستشهد في سبيل الوطن.

لا أعلم ماذا قالت له من كلمات حتى أجابها: لن أعود أمي، تقبلي الواقع وافتخري بي عراقيًّا شجاعًا ليس ذليلًا، لم أقبل الإهانة، افتخري بيّ يا أمي.. وإن حدث لي مكروه فاعلمي أني أحبكِ جِدًّا وكُل ما أريده هو رؤيتكم سعداء.

طأطأ رأسه إلى الأسفل وتتابعت الدموع بالنزول.

تكور حول نفسه وظلّ يُردد بأسى: واللهِ يا أمي ما أنا بمكتفٍ مِن حنانكِ، لكني قلبي بحاجة إلى وطن آمن كِحُضنكِ تمامًا، كيف لي أن أرى الذُّل وأجلس متفرجًا؟ أترضين أن يكون ابنكِ مَتخاذِلًا جبانًا؟

لا أحد يسمع ما يقول غيري، كُنتُ أشعر بِه، لكن لا حولّ ليّ ولا قوة، أتاه صديقه وسأله وباستغراب:

-ما الذي دهاك؟ أأنت يائس الآن؟ بعد كُل مواقف الموت التي واجهتها تبكي الآن؟

أجابه: الأمر ليسَ كما تظُن، إنها دموع أمي، أقوى الأسلحة، أقوى من بارود طلقاتهم، تاللهِ إنها لأشد مِن الموت! ما نعرف شوكت نموت وهالوطن ما بي دفا.

كنتُ أنظر إليهم ومُمسك بيدي الاثنتين مُتأثرًا بِـتصفيقي قبل قليل.. ولكن منظر عليّ شدني حيثُ ذكرني بِأمي وإخوتي وهم يقولون لي "عد يا عمر"، ويصرون عليّ إلا أنني كنت أجيبهم: لن أعود إلأ عِند انتهاء المُظاهرات أو يلتف جسدي بالعلم شهيدًا.. لن أعود حتى يظهر الحق ويسقط كل فاسق، سقطتُ أنا ولم يسقط الفاسدون وأطلقتُ ضِحكة بسيطة.

مَسك أحدهم يديّ وأنزلهما قائلًا:

تجلس وكأنك مصدوم! لا تنصدم بِمَا يحدث فهذا العراق العظيم مهما خفنا فنحن نموت بأشكال مختلفة وأسباب مختلفة.

نظرتُ إليه بِفمٍ مطبوق وشفاه عبوسة، قلتُ له: أهلًا أنور بحت الأسدي وتابعتُ كلامي، أجل، صِدقًا ما قلتَ ولكن متى سيرتاح هذا الوطن الجريح الذي لم يذق طعم الراحة؟

أجاب: لعله سيبقى يئن مدى الدهر أو حتى يحين الفرج.

قُلتُ له: لكننا فقدنا الحياة وعِطر الأمهات من أجل أن نراه سالمًا مُنعمًا ولم نره كذلك! الموت أقوى من الحياة هُنا، الموتُ عِراقيًّا جِدًّا.

أغنية علت في المكان قاطعت نِقاشنا:

هوهوهوهو... شما حركو ا خيمنه... يعلى أكثر علمنه

هيبة الناصرية... تبقى بزود دمنه هوهوهوهوهوه

اسمع يا سياسي فكري شي أساسي.. قناصاتك طيح ويضل عالي راسي.

الحبوبي واحد وأنتم ألف شاهد.. أحرار لريح الأحزاب وما صرنا كواغد.

بعدها أطلقوا أغنية (إحنا البكيسي المايسكت والبهبهان يلوكلنا)

التي انتشرت في أيام ثورتنا وأخذت صداها وسط تصفيق وفرح وكأنهم لم يبكوا قبل قليل. هذا ما تعنيه القوة.. وفي الجهة المقابلة كانت أغنية:

(يا ساحة ترابج كافور)

التفتُّ بِحركة عفوية، مالذي جاء بك الى الحبوبي يا أنور هل اشتقت لأجواء الحبوبي والطاقات الغيورة التي فيها، ام ان جلوس وسط الاحباب دون ان يلاحظوا وجودك قد عذبك!.

أنور: لم يعذبني شيء سوى ان اشاهد طفلي يمر دون ان اداعبهُ بين يداي وكيف اتطير فرحًا حين يقول بابا ،تطرب مسامعي بكلمة بابا، التي سرقتني المنية قبل ان يتغنى بها ولدي...

أجابت عني تعابير وجهي الحزينة، وفي أثناء ذلك مرت امرأة تُمسكُ بيدها طِفل، رأيتُ أنور ينظر إليها بِحسرة قائلًا:

أتعلم يا عمر؟ مازلتُ لم أشبع مِن ولدي، مازلتُ أود احتضانه، مازلتُ أريد أن أضعه بين يدي وأداعبه، سرقوا مني لحظات الأبوة العظيمة.. أسميته عباس، فــهو جميل الوجه جدًّا يستقبلني ويقبلني كل ما دخلت للمنزل. تخيل أن تكون ثمرة حبكَ طفلًا حينها ستعلم معنى السعادة.

اشتقتُ لهم كثيرًا كل ليلة أذهب إليهم لأقبلهم، ولكن دون شعورهم.

لم يعد الكلام مُترجِمًا لمَا نشعر به، فمأساتنا أكبر من أن نبوح بها. الحسرة حين تنظر إلى ما تتمناه ولا تستطيع لمسه بحد ذاتها عذاب، سرت عيناه خلف المرأة والطفل والخيبة والحسرة تجري من أنفاسه. وكأنه يقول بعينيه هاتوا ولدي لأشبع ظمئي منه. ويا زوجتي، شوقي إليكِ لا يقاس بعددٍ، فراقكم مرّ على روحي.

غفونا معًا ولم أشعر بشيء حتى حانَ الصباح حيثُ استيقظتُ صباحًا ولم أجد الشجاع بجانبي. رأيتُ الثوار أكملوا منزلهم الجميل ووضعوا فيه الأغطية والمِدفئة. وكيف سارع الأهالي لنجدتهم ومعونتهم بما يحتاجون من فراش وأغطية وغيرها. أخذت خطواتي وأردد (ولدج يناصرية سباع)

لا شمس ولا ظل ولا ذكرى ولا قصيدة
ونحن هنا في المنفى
لا نعرف سوى شجرة الحزن
ودموعنا..

"حسين جليل"

المرء ينظر للعالم من خلال مشاعره، وكنتُ بطريقي للمنزل أرى ما بين المؤيد والرافض للثورة. شاهدتُ ملل الناس مِما يحدث، واليأس في كلماتهم.. لا أمل أن ينعم العراق بالراحة. وصلتُ لِـدارنا، أول من رأيته هي أمي جالسة في حديقة المنزل، بِيدها طوقٌ من خرزٍ جميل تُسبح بِه وتذكر الله، أعلم أنها مواساتها الوحيدة. دنوت بطولي لها أحتضن جسدها الذي هزُل كثيرًا. همستُ لها:

-أتوسل إليكِ بأن تشعر بِـوجودي وأن تُرددي اسمي، بادليني الحضن. أنا بِدونكِ ضائع، تالله ضائع. يا أمي، أتذكرين كيف كُنتُ أجلس بِحجركِ وأشكي لكِ هميّ مِن قساوة الأيام وضرباتها المتوالية عليّ بلا أيّة ملل، من يا أمي سيؤنس قلبي المُتألم؟ من سيرأف بحالي يا أمي؟

أفلتُّ يديّ المُحيطة بها وجلستُ على العُشب خلفها أجهش بالبكاء.. كُل ما رغِبتُ بِه هو عِناقها فقط، أن تنطق اسمي وتضمني بحنوّ إلى صدرها، على صوت أمي الباكية.

"يمه عمر"

شهقة بكائي كادت تخنقني، تقدمتُ نحوها ورميتُ بِجسدي بحضنها. "يا بعد عين عمر!"

أذكر في أحد الأيام حيثُ كُنتُ أشعر بِملل قاتل، ولطالما ما كان يأسرني الحديث مع أمي وأنا في حجرها عن الصخب الحياتي الذي يعيشه حيدر وحسن مع بعضيهما. وكثرة حديثهما وضحكاتهما على ما يجرى معهما، في المدرسة الجديدة وكُنت أضحك حين يقصان عليّ أمرًا حدث معهما، إنه لــشعور قاسٍ.

كُنتُ دائمًا مؤمنًا بقاعدة حياتية عظيمة وهي: «اعمل فيما تُحب، لِـتكون الأعظم»

انضممت لحسن وحيدر إلى مدرستهما.. وبعد عِدة أيام من انتقالي. ودونَ قصد مني ذهبتُ للمدرسة مُرتديًا قميصًا ذا لون مشمشي.. دخلتُ واثق الخُطى، لم أخف من توبيخ أستاذ أو حتى حصولي على إنذار، فَسمعتُ صوتًا خشنًا يقول: عمر!!

استدرت له وقُلت: نعم يا أستاذ؟

الإستاذ: لون قميصك ممنوع، لا يجوز ارتداء هذهِ الملابس في مدرستي، أفهمت؟

أجبت بكامل الهدوء: مِثل ما تُحب يا أستاذ، لا مشكلة.

رأيتُ حيدر فقلتُ له: لن أبقى في هذا المكان أبدًا، هل تنتقل معي ونعود لمدرستنا؟

رد عليّ حيدر: هيا يا أخي، لنعد أدراجنا حيث أتينا.

وضع يده على كتفي كأنه يقول أنا سندك حين يعاندك العالم.

عُدت برشدي إلى حيثُ أنا في الحديقة في حضن أمي، أشعري بي، كم أتمنى لو أنكِ تعلمين بِجلوسي قُربكِ، لو أنكِ لا تذرفين الدمع لفُراقي وتقولين ها هو ولدي بجانبي كي يستريح قلبي.

رددت بصوتٍ باكٍ: (يمه نشف دم كلبي بروحتك هاي).

أخرجت الهاتف وأضاءت الشاشة بصورتي، واخذت تنظر اليها وتقول:

شح مني الدمع كد مابجيت عليك... ظلم كلش ظلم تحيا وتموت بشوك...عموري يمه كلبي محتام عليك.

لا كلمات تستطيع ان تروي لأمي عبير حبي وحنيني لها، وسرقتني الذكرى من مكاني وعادت بي حين كنتُ في الصف الثالث المتوسط حين اشتريتُ الهاتف الجديد الخاص بي، كانَ نوع هواوي، كم كنتُ سعيدًا بِـه، حافظتُ عليه أكثر مِن أي شيء سبق.

ذهبتُ أتمشى بِـتكبر أمام أصدقائي لامتلاكي هاتف جديد، وكانت ردّات الفعل تتفاوت ما بين:

-اوووووو عموري صاير عندك تلفون طكووووو.

- العب يووولد تلفون جديد محد كدك بويه.

على الرُغم من أننا كُنا نملك كُل شيء، إلا أنه حينَ يشتري أحدنا شيئًا جديدًا ننظر إليه كأنه شيء عجيب أصبح ملكنا نحنُ جميعًا!

كُنتُ أحب التصوير به، أتصور مع رِفقتي، وكنتُ كُلما اجتمعنا أخرجتُ هاتفي ووثقتُ جميع اللحظات الصغيرة. كانَ شيئًا عفويًا بأن أترك لهم كُل ذكرياتي وكل لحظاتنا معًا.. الذِكرى باقية وجسدي فانٍ. وها هي صورتي في هاتف أمي تدفئها حين تجتاح رياح الشوق قلبها. الصور هي ما تبقى بعد فنائي.

خرجتُ مِن منزلنا وذهبتُ بِـطريق أجهله إلى أين سيأخذني، كنتُ أتخبط بكل الطرق أجوب مُترنحًا حتى وصلتُ إلى جسر الحضارات. فـمر مِـن أمامي شاب وسيم، يُدندن بِصوتٍ ينطوي عليه الوهن:

-هل حققوا حُلمي بإعادة وطني، وطنًا حُرًّا؟ هل قدّروا تضحيتي ونفسي التي زهقت مِن أجلهم؟

ناديته: أيها الوسيم!

استدار مُجيبًا: ما الأمر؟ هل حققوا حُلمي؟

استفهمت: متى وافتك المنيّة؟

-بانطلاقتها الثانية يوم الخامس والعشرين من أكتوبر، ويكفيني فخرًا أنني ضحيتُ بِـنفسي مِـن أجل عِراقٍ أفضل، هل أصبح أفضل حين غادرت؟ حين سقت دمائي أرضـه؟

رددتُ بأسى:

-لقد سبقتني بالشهادة، بغداد العظيمة، أعلم بأنهم أستخدموا كافة أنواع الأسحلة في ردعكم، فقد كُنتم شُجعان في المواجهة جِدًّا، رِجال ما بعدهم رجال والله.

-رحلنا عن عالم كل شيء فيه مُتقلب ومُتغير، والمئات مِنا لاقى حتفه بسبب الرصاص الحي. كُل شيء في العراق ميت، إلا الرصاص كان حيًّا جِدًّا.

عمر: سُحقًا لهم، خسئوا هم وبارودهم، مطالبنا حق وستتحقق على الرُّغمَ من أنوفهم.

ردَ عليّ الشاب: أنا أنتظر ألا تذهب تضحياتنا سُدىً، وألا يكون دمي رخيصًا يُراق بِدون نتاج يُذكر، هيّا يا رحّال، أنا ذاهبٌ إلى بغداد، فهي بحاجتي كثيرًا، ''الناصرية بيها اسباع هوااي''.

نَظرتُ باستغراب ودهشة إلى الرجل الذي أسماني للتو ''بِــرحّال'' فسألته:

-أيها الشاب لِمَ لم تُعلمني باسمك؟!

أجاب الشاب: أنا الشهيد المُدافع عن وطنهِ بِحُبّ.. عباس صباح جواد الصبيحاوي، أعلم بأن اسمي ضاع بين أسماء الشهداء وفي صخب الأحداث لكن لا بأس، دُمتَ بــودٍ يا رحّال.

-لنا لقاء آخر حين تتحق مطالب الثورة.

واصلتُ طريقي متقدمًا أنظر إلى مفترق الطريق الذي يُسمى «بالجزرة الوسطية»، تَذكرتُ حينها الشاعر عريان سيد خلف عِندما قال:

نتعافى ونذم بالخلك هذا وذاك

وعلى غفلة وزرك جدامنا التابوت

تذكرتُ كيف كان انتقالي مِن مرحلة الصِبا إلى مرحلة الشباب، حين أصبحتُ طالبًا في الإعدادية وكيف تغيرت رغباتي، وأصبحتُ أغفو بِحب الشعر والأدب، وأستيقظ بعشقه ومُتعطشًا لمزيدٍ مِنه.

أول شغفي بالشعر، بدأ بذهابي إلى مقهى الأدباء بعد انتهاء دوامي المدرسي، كُنتُ أجلس وأراقب ما يحدث هُناك، فجذب انتباهي وجه لِشابٍ لطيف ذي ملامح تبعث الطمأنينة في من يراه.. فبتُّ أراه كُلما قدِمتُ للمقهى، حتى قفزت لِرأسي فكرة التقاط صورة رمزية معه للذكرى.

توجهتُ له، رُبما اعتلاني التردد في البداية، ولكني استجمعت ثقتي وأستأذنتُ بقول:

-مرحبًا، هل أستطيع التقاط صورة معك؟

نظر إليّ بنظرة تنطوي عليها الدهشة والاستغراب، فأومأ لي برأسه دلالة الإيجاب، فوقفت قُربه والتقطتُّ صورة ذاتية لي معه.

فدعاني الشاب اللطيف للجلوس معه ومع أصدقائه، فتعرفت إليهم وتبادلتُ أطراف الحديث معهم، وضحِكنا كثيرًا، كان اسم الشاب «كرار الصريفي''، وبرفقته حسين فيصل وإبراهيم الجليل، كانوا لطفاء بِحق، حتى انتابني شعور بأنني أعرفهم منذُ زمنٍ بعيد، تنطبق علينا مقولة ''يلتقي الأصدقاء بِصفاء قلوبهم».

رُسمت على معالم وجهي البسمة بتذكرهم، قاطع سلسلة ذكرياتي صوتً عويل امرأة تقولُ بِــصوتٍ مُتألم:

(ولك كبرتك وطلعت يمه. ولك تعبتني ليش هيج تغدر بيه وتروح يمه)

كان صوت المرأة يقطع القلب ويطحنُ الروح، مِن الصعب تحمل الفقد، لا شيء أصعب من أن ترى ثمرة تعبها جُثة هامدة لا تصدِرُ صوتًا أو تُحرك ساكنًا، الأمر مُروع بحق، فــنساء العِراق يُنجبنَ الأولاد للموت.

بحثتُ في جميع الاتجاهات عن هذا الصوت، بحثتُ عن هذهِ الأم الثكلى فلم أجدها، ولكن قد أصبح الصوتُ واضحًا حين اقتربتُ من الشباب الجالسين، كانوا يُشاهدون مقطعًا مصورًا لامرأة فقدت ولدها، كانوا متأثرين للغاية ويجهشون بالبكاء، انقبض قلبي بألم على ما رأيت ودمعت عيني، لتذكري أن أمي هي واحدة من الألف الثكالى في هذا البلد.

استمر الفيديو لدقائق قليلة حتى تغير لآخر، لأب مفجوع بابنه، كَان يصرخ وكأن قلبه هو من يخرج لا صوته يقول:

(بابا عباس مبري الذمه بيه داك على صدرك رقية عزيزة الحسين.. يبهه سامحني).

حسنًا، ربما مِن الجيد بأنك يا والدي، ذهبت قبلي لكانَ الآن حالك كحال الرجل، يَصك الوجه ويلطم الرأس ويبكي في مجلس العزاء لفقداني، يكفني كَسرُ قلب أمي.

مُفجع ما رأيت كان شيئًا سيئًا بالعراق.. كل شيء مؤلم.

وقعتُ أرضًا وأنا أبكي، كانً بُكائي عاليًا موجعًا، لفتّ نظر الشباب الجالسة نحوي حيثُ قال أحدهم: شباب هذا رحال.

نظروا جميعًا نحوي، كانوا يجلسون بطريقةٍ لطيفة ويُشاهدون الأحداث حتى قال أحدهم: أفسحوا المجال لِـرحّال.

فجلست معهم بعد أن ألقيتُ التحية عليهم فردًا فردًا، دار في رأسي سؤال ولم أتردد ثوانٍ في طرحه فسألت: أكُنتم معا هكذا في الدُنيا، أم جمعتكم الصدفة هنا؟ لأنني رأيت بعضكم وهو يفارق الحياة وأعرف بعضًا منكم من محافظات مختلفة كيف اجتمعتهم؟

رد عليّ أحد الجالسين: جمعتنا أصوات الأمهات الثكالى، ونواح الأباء الذين بلا أرواح، ولطم الإخوة، جمعتنا الأماني والمآسي والألم، الراحة التي ننعم بها الآن تنهيها نظرات من تركناهم خلفنا يتعذبون، والسبب الثاني لمجيئنا لناصرية وجلوسنا هنا هو تلبية لطلب من ذي الوشاح.

كنتُ أريد أن أسألهم عن اسم رحال في بادئ الأمر، ولكن كلمات هذا الشاب أنستني ما كنتُ أريد سؤاله فقلت: إنَّ دُموع أمي تُقطع قلبي وتجعلني مُحملًا بالألم.. لم أعلم بأن دُموعها مؤلمة، ولم أعلم بأن الأمر قاسٍ إلى هذا الحد، قلب أمي ووجعها كأمك وأمه وغيرهُن كثير، وحّدهُن الفقد على الرُغم من اختلاف الديانات وحتى الطوائف، الألم واحد.

بعد أن ساد الصمت بيننا، سألت للمرة الثانية: أين ذو الوشاح؟ لم أقابله مُنذُ اليوم الذي انضممتُ فيه إليكم؟!

أجاب بِثقة تعتلي وجهه: لابُد أن ذا الوشاح استأنس بالجلوس مع المغدورين.

تغيرت تقاسيم وجهي، فهل هُناك غدرٌ أسوأ من غدرنا؟

صدر صوت بجانبي قاطع شرودي يقول:

-شباب، اليوم رحّال بيناتنا، خلونا نحط خيمتنا ونسوي حفلة صغيرة نتعرف بيها على بعض قبل الحفلة الكبيرة.

كانَ أحد الشُّبان جالسًا فوقف قائلًا: أريد خيمتي على النهر ومعها أرجوحة ووجبتي المُفضلة سمك مشوي على الحطب.

لطيف كان المُزاح بيننا، وكل واحد منهم يقول للثاني خيمتي ستكون هنا، ليرد الآخر: أنا من حجزتُ هذا المكان قبلك. المزاح الذي جمعهم أعادني لأيام الدنيا، وكيف كنا نتمازح من يدفع الحساب أولًا، ومن يجلس قرب الشباك في السيارة. وقف شاب جميل البنية: هيا يا شباب، دعونا نعمل قبل مجيء إخواننا.

قلتُ له: من تقصد أنه يأتي؟

رد عليّ: كل من فدى بروحه في أكتوبر الدامي. لأن الملتقى عشاق العراق سيكون في الناصرية مدينة القوة والشجاعة.

تنبهت أن هُناك أحدًا يجلس في معزل عنا ودموعه تنهمر بـغزارة، أخذت خطواتي بالتقدم نحوه، سمعتُ صوت امرأة يصدر مِن الهاتف، علمتُ من نبرة صوتها المُنكسرة بأنها أمه. أمه التي فطرت الصخر نصفين بنعيها على ولدها.

(ماما مهند شسويت وغدروك ماما. آخ يا ماما الله ينتقم منهم ودمك ميروح. شسويتلهم وجرة إذن سولك ولك ماما) سمعته يقول (لا تصرخين يا امي تدريني خشب وبنار فركاج رماد وابدي). بِتُّ بـــِجواره، لمحت المكتوب على شاشة الهاتف. أم الشهيد مهند القيسي في مكان قتل ابنها. حِرت ماذا أفعل أأواسيه أم أبكي على حاله وحالي الذي يشابهه بالاشتياق ومرارة حزن أمهاتنا اللاتي تركناهن خلفنا يمتن قهرًا علينا. كان جالسًا يتنقل بين المقاطع المُصورة، حتى وصل إلى مقطع مكتوبٌ عليه بين الحاضر والمستقبل، في بدايته الماضي، الذي كان فيه مجموعة شباب جالسين، ولمحتُ وجوده بين الجالسين، كانوا يصفقون ويرددون بِـصوت واحد:

صغيرة جنت وأنت صغيرون... والوطن بيدين الييوكون... كالو عنا ما يغيرون... بس بوكته انفتحت عيون... سوينا العجب والوطن عنا كتب.

انهمرت مِـن عينيه الدموع ولم أسيطر على نفسي أيضًا فبكيتُ معه، جلستُ بجانبه ولم أكن أعلم كيف تتم السيطرة على النفس والمشاعر في هذهِ اللحظات والمواقف، فكنتُ أراقبه بصمت وأراقب تتابع المقطع المصور وانتقالته إلى الحاضر، حيثُ المجموعة نفسها مِنَ الشباب يدخلون إلى المقبرة ويجلسون قرب قبر مُهند، مِنهم من قبل القبر ومِنهم من احتضنه، وانطلقوا يغنون أغنيتهم:

لالاي لالالاي..

بالخيمة سهرنا ليالي

رغم البرد والهوا العالي

دولتنه نبنيها يغالي

يصير جنة هالبلد

ونموت ويزيد العدد

ونموت ويزيد العدد

ذوله ولد الثنوة

أحنه إخوان الأسد

لالالاييي لالالاي..

مُهند واحد منا مِثلنا، فدى بِروحه الوطن، في اليوم الخامس من شهر شباط عام عشرين عشرين، كان لطيش القبعات الزرقاء وجشعهم وقساوة قلوبهم لتجعل النجف تخسر ابنًا بارًّا، وروحًا نقية. بادر إلى ذهني سؤال لم أجد إجابته: ماذا فعلنا كي ينتهي بِنا الأجل هُنا وبِهذا العُمر؟

رآني واقفًا قربه فقال لي:

-العمر مشوار تكضي ايامه وتعدي والوكت دولاب ياخذنه ويودي. والموت ماكو احلى منه والضيم يبقى على العدل مو على الميت.

نادى علينا محمد الموسوي: هيا يا شباب، البكاء لن يُجدي نفعًا ولن يُعيدنا للدُنيا، تعالوا لِنكمل عملنا.

ذهبتُ معهم لأشد حِبال الخيمة مع الشباب الأربع الموجودين معي فقال لي ذو الشهامة:

-هيا يا بطل، يجب أن ننتهي قبل حلول الليل وقبل وصول الأصدقاء، سأثبت الحديد على الأرض وأنت شُدّ الحِبال معي.

استهلك مِنا العمل هذا ساعتين بالضبط، رأيتُ خلال العمل أنه يحمل العلم العِراقي في جيبه، استغربتُ قليلًا، ولكني ترددت في طرح السؤال، رُبما يكون السبب خاصًّا أو شخصيًّا بالنسبة له، لم أصرّ في ذهني على السؤال، واستمريت في العمل معه حتى انتهينا من نصب الخيمة وتجهيزنا لكل شيء، فجلست قربه وأعطيته قليلًا من الماء، واستلقيتُ على الأرض أنظر إلى السماء، ففعل ذو الشهامة الشيء نفسه، فبقينا نرسم أحلامنا على سماءٍ لا يراها غيرنا.

مَرَّ من جانبنا شابَّان، أحدهم،كان ملك جمال العراق لعام ألفين وسبعَة عشر وقد استحق هذا اللقب بِجدارة، إنه «نور أحمد الكناني». والآخر «حُسين أحمد الدراجي، هذا الفتى المغدور الذي تهمشت هامته في أثناء دفاعه عن نفسه مِن الطلقات الطائشة والدُخانيات المميتة. كانوا يتنافسون فيمَا بينهم على من سيقدر على السِباحة في هذا البرد وماء النهر شديد البرودة!

قلتُ له محتارًا: شبابنا ضاع والحنين بداخلنا لا يطاق ومازلنا نحتفظ بروحنا المرحة!

أجابني محمد الموسوي: نحن لم نمت، لا تنسَ هذا، سنُخلَّد كما خُلِّد هذا العلم.

وكان يُشير بِسبابته على العلم المرفوع، فتذكرت الآية القرآنية التي تقول:

“وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا ۚ بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ»

فنحن لم نمُت، نحن أحياء عند رب العباد نُرزق وننعم بِحياة طيبة.

سألت محمد الموسوي بِداعي الفضول: ما قصة هذا العلم.؟

أجابني محمد وهو يفتح العلم بيديه وكان عليه آثار طفيفة من الدماء:

- أتعلم أنني قتلتُ في سبيل هذا العلم في إحدى ساحاتِ البصرة؟ سقط العلم أمامي وكيف يسقط العلم أمام محمد الموسوي صاحب الشهامة؟ وكيف لي أن أتركه يسقط دون الولوج لرفعه؟ هرولتُ مسرعًا لِــلعلم رافعًا إياه من الأرض، لم أشعر بــشيء حينها إلا برصاصة غدر اخترقت رقبتي ولم تستقر برقبتي، بل خرجت من الجهة الأخرى مُحدثة ثقبًا لا خلاص منه، سقطتُّ شهيدًا وسقطت مني كُل طموحي، وسقط معي حُبي لفتاة ليست مِن الطائفة التي كُنتُ عليها، بِلمحة بصر، أصبحت محاولاتي بالزواج مِنها وكُل كفاحي لأجلها على الرغم من رفض أهلها، وبعد معاناه اصبحت لي ولكن كل مافعلته باتَ هباءً منثورًا.

عمر (رحال): لِماذا رفضك أهلها؟

محمد: كنتُ شيعيًّا وهي سُنية، كانوا يقولون إن طوائفنا لا تلتقي، خرجت من أجل أن نعيش بِـلا أسماء مختلفة.

عمر(رحال): لا يهم، فقد رحلت أرواحنا، ولكن ستبقى ذِكرانا ترفرف في سماء الوطن كهذا العلم. ولعلنا سنصبح درسًا نقول فيه للأجيال توحدوا وتقبلوا كل الديانات. وصل إلى أسماعِنا صوتُ صُراخ لِـفتاة مُتألمة، نظرَ أحدنا للآخر ورفعتُ يدي له:

- ما هذا الصوت؟ من أين جاء؟

وقفنا وبِخطوات سريعة ذهبنا حيث الصوت، شاهدنا فتاة صغيرة بالعمر قد دخل الزجاج قدمها فنَاديت بأعلى صوتي:

-شباب، أهناك من هو مُختص بالطب؟ أو يجيد الإسعافات الأولية؟ فــهنا فتاة بحاجة إلى مساعدة.

لبوا ندائي وحضر المسعف الذي كانوا يلقبوه «منتصر السعيدي»، أحضر عدته معه وقال لها مُطمئنًا:

-لا تخافي، الألم ليس كالسابق وبِـمجرد أن أزيل هذا الزجاج يختفي الألم ويختفي الأثر وتعودين كالسابق.

همهمت البِنت وسكنت قليلًا، كانَ المُسعف منتصر السعيدي يسألها ويشتت تركيزها عن الجرح فكان يطرح الأسئلة المُتعاقبة: ما اسمكِ؟

الفتاة المُصابة: اسمي زهراء علي.

منتصر: كم تبلغين من العمر؟

زهراء: تسعة عشر عامًا.

رحبَّ بها مُنتصر بابتسامة لطيفة قائلًا:

- أهلا بكِ بيننا، وها وقد انتهينا. شاهدي قدمك كيف عادت جميلة كالسابق!

تمتمت إليه بالشكر الجزيل. وقالوا لها اذهبي لتأخذي قسطًا من الراحة.

فرافقها أحد الشباب لكي يُرشِدها لـخيمتها التي جُهزت لأجلها.

أما عن عينيّ، فكانتا تدوران في المكان بحثًا عن ذي الوِشاح فقد تأخر، فقد أخبروني أنه سيأتي بـحلول الغروب ولم يأت!

أشعلوا النار، وكان مصطفى عبد الزهرة يمشي ببطئ يريد أن يمقلب أحمد المهنا برش الماء عليه، ولكن أحمد أفشل مقلبه باستدارة قبل أن يبدأ رش الماء.

تذكرت حين ذهبت إلى مقهى الأدُباء كالعادة أذهب إلى هنُاك بعد الفطور للقاء حسين فيصل وكرار وإبراهيم، وبعد المشورة والنِقاشات قررنا أن نذهب ونُحيي ذكرى استشهاد الإمام علي (عليه السلام) في النجف إلى جنب الضريح وليكون الأسى لفقد الإمام هو موحدنا، جهزنا جميع أمورنا للسفر ورتبنا الوضع، وبعد ذلك همَّ إبراهيم بِالذهاب، فطلب مِنه كرار أن يوصله إلى بيته.

إبراهيم: هيا هيا يا فتى هلمَّ معي للذهاب ونترك هؤلاء لوحدهم يتكلمون.

قالها بـمُراوغة وهو يغمز لِكلينا، ثم لوحا لنا واختتما لقاءنا بـ «نراكم في الغد يا رِفاق" لوحا لنا بالوداع مع كلمات نلتقي غدا يا أصحاب.

سألتُ حسين: ماذا آخذ معي من أغراض برأيك؟

حسين: لا تأخذ شيئًا ما هو أكثر من ملابسك التي ستلبسها وشيئًا تسند بِه قوتك.

أومأت له بالإيجاب وكأنها تقول «حسنًا» ولكني في الوقت عينه سألته:

-ما رأيك بأن نلتقط صورة تذكارية لنا نحن الاثنين قبل الغد.

حسين: هيا يا ولد سيلفي وأنا والشيشة العربية والشاي العراقي الأصيل.

كانَ مُتفاخرًا بما لديه، على الرُغم من أنه أضحكني إلا أنه يقول الحقيقة، فهذِه الأشياء البسيطة جميلة للغاية. التقطنا صورًا كثيرة وبِحركات مُتعدد ومُضحكة حتى شعرتُ بالشفقة على هاتفي لا أعلم لِمَ أحسست بِه ضجِر؟

بعد نصف ساعة قلتُ له:

- سوف أتسحر معك، أريد سحورًا مرتبا ولذيذا.

كنتُ أتشرط عليه وكأنني سوف أذهب لـمنزلي وليس منزل صديقي.

هذِه هي الصداقة، لا بل الأخوة الحقة، حينَ يكون منزل صديقك منزلك، وأم صديقك هي أمك الثانية.

حسين: أتذكر يا عمر أول يوم تعرفنا فيه إلى بعض؟ وكيف قدمتَ إلى منزِلنا وتناولت الغداء معنا، على الرُغم من مرور أسبوعٍ واحد فقط على صداقتنا! وعلاقتك بأمي الجميلة جدًّا، جعلتني أذهل بـقدرتك على جعل الناس تُحبكَ يا صاحبي.

عمر (رحّال): أوووووه، أتذكر كان سمكًا لذيذًا، حين نعود مِن الزيارة ادعُني على السمك نفسه.

حسين: يا به تدلل عمير إذا على هاي سهلة.

كان جلوسنا مع بعض يدلُّ على النضج والأخوّة قبل الصداقةِ والحب الفطري الذي لا تشوبه شائبة، هممتُ بالخروج معه مِن المقهى وركبتُ الدراجة النارية خلف.. حسين كان يعلم ما أحب وما أكره ويعلم بأني أحب الطماطم مع البيض ويحضرها لي دائمًا. كان يعلم ما خطبي قبل أن أخبره، كان الأخ والسند والصديق الحقيقي الذي لن أعوّض عنه.

ودعته لأذهب لأخبر أهلي بأمر ذهابي معهم إلى الزيارة، كُنتُ أدعو فقط ألا ترفض أمي ذلك، وأن تودعني بِحفظ الله، صحيح أن الديار ديارنا، ولكن السلامة مفقودة لدينا ولا نعلم أسنعود سالمين أم سنكون من نصيب الموت؟! على الرُغم من أن النجف قريبة، وأننا في طريق الإمام وابن عم الرسول، ولكن أسوأ الاحتمالات مطروحة حتى في أقصر الطُّرق.

بينما كُنتُ أجهز ملابسي، كانت دعوات أمي تُحصنني بالله وبالأدعية وقد جهزت وعاءً من الماء لكي تكسبه خلفي بداعي الأمنية الوحيدة والرجاء الأقرب لقلبها بأن أعود سالمًا.

كُنتُ متأهبًا للذهاب على الرُغم من أنني أشعر بأن عروقي قد جُفت من الصيام والجو الحار حينها، لكني مُتحمس للغاية، وصلت إلى السيارة التي ستقلِنا وركبتُ مُباشرة حيثُ كاد النعاس يقتلني، ولم أعلم بقدرتي على التحمل خوفا مِن عدم استطاعتي، أكمل صيامي فـجلستُ في المكان الذي رغِبَ فيه كرار، وحينَ وصلنا لنقِل كرار رآني أجلس في مكانه فقال لي:

-عمور انزل المكان مكاني!

لا أعلم لِمَ أصابني العناد وقلتُ في قرارة نفسي بأني لن أتحرك مِن هُنا بـكُل ما أوتيتُ من عِناد، ولكن لما بدأ الأمر بدا أن كرار لم يرغب في مُجادلتي في ذلك الوقت وقرر الانتقام بشيءٍ آخر حيثُ قال:

طيب عمور ماكو مشكلة بس تحمل شقاي التكيل.

رفع لي كلتا يديه بـتوعد، ابتسمتُ في وجهه ولم أعر كلامه أي اهتمام مادمت أنني لم أغير مكاني.

كنتُ مِمن يربطون الأحداث المُتشابهة، فحين انطلقت السيارة شعرت وكأن الحياة تسير بِنا على محمل جِدّ لا تراجع عنه، ورُبما الفارق الوحيد بأن وِجهة السيارة معلومة، وبأننا سنصل بأذن الله ولكن الحياة هي طريق مجهول ولا سبيل لِـمعرفته أبدًا، كُنتُ أنظر إلى الطريق مِن زجاج السيارة وأنا أطلق العنان لأفكاري بأن ترسم أحلامي وكل ما أرغب، طافت بي حول كل ما أحببتُ يومًا، وما سأحبه مستقبلًا حيثُ حلمي أن أصبح إعلاميًّا مشهور، وبأن يُسمع اسمي في كل مكان وفي كُل بيت عراقي، بأن يكون لحضوري صدىً، بأن أكون أمنية لشخص ما أن يأخذ معي صورة، كنتُ أطرح على نفسي سؤالًا: أسأكون مقدِمًا لبرنامج رياضي أم ترفيهي، أو حتى أدبي؟ حسنًا، أشعر أن رغبتي الكُبرى بأن أصبح مُقدمًا لبرامج رياضية لأنني وكما تعلمون أحب الرياضة كثيرًا.. إنه لشعور جميل أن أزور الأندية الرياضية وألتقي بِكُل اللاعبين، وأن أقابل جلال حسن لاعبيَ المفضل، وأجلس معه وأتناقش، ألتقط لنفسي كثيرًا من الصور معه. أحلامٌ بسيطة جِدًّا ولكنها تحتاج إلى عملٍ دءوب واجتهاد ذاتي لتحقيقها، وما هي إلا لحظات حتى سرقني النوم من كُل ما خططت

له، ولكن المفاجأة الأكبر بأني استفقت فزعًا، وكنتُ غارقًا بالماء وأرى الرفاق يضحكون. وصل إلى أذني صوت كرار يقول:

-حذرتك يا عُمر.

قلتُ له:

-لم تتمكن من الإطاحة بي وأنا مُستيقظ، فانتهزت فرصة نومي يا هذا!

-إذن أنت تُعلن الحرب! وأنا أهلٌ لها، ولن تنتهي إلا بانتصاري عليك يا عمور.

قلتُ له مُتحديًّا:

-وإن يكن، أنا قوي ولا أخافك.

كانت السيارة مُستمرة في طريقها، فـحلَّ الصمتُ بيننا، فكل واحدٍ مِنا لديه ما يُشغل باله، ما كان يقطع الصمت السائد حينها إلا اتصالات الأمهات الخائفة من أي معرقل يعترض الطريق، كان اتصال اطمئنان.

وصلنا إلى مدينة النجف، بعد عناء الطريق وحديثه الممتع على الرُغم من صيامنا إلا أننا ما زلنا بالطاقة المطلوبة، وصلنا إلى مقبرة النجف، مقبرة «وادي السلام" التي كانت وما زالت وستبقى إلى الأبد المأوى الأخير لنا، المكان الذي يرقد فيه الأحبة وأعزاء القلب بسلام، نظرت إلى ما فيها من قبور كثيرة، مِنها ما هو قد حلّ عليه الخراب وتآكل، ومِنها ما هو جديد، وأكثر ما يُخيف هي القبور التي على شكل سراديب.

شردتُ بذهني أتساءل كيف هي حياة أهل القبور؟ أهي الراحة ما بعد التعب والقهر الحياتي الذي لا ينتهي؟ أم أن الموت هو الراحة الأبدية التي نبحث عنها؟ ماذا لو توقفت قلوبنا عن النبض، وأعيننا عن الرؤية، وأصمت أذننا، ولا يسمع صوتنا أحد، وأن نُصبح مُجرد جسد خاوٍ ملفوفٍ بالكفن الأبيض كما ولدنا تمامًا لا نملك من الدُنيا سِوى القطعة البيضاء تِلك؟ أن نوضع في حُفرة صغيرة ثُمّ يهلون علينا التُراب؟ تساؤلات كثيرة تملأ رأسي ولم أعلم كيف الخلاص مِنها، ولا أعلم متى وكيف سأكون في هذا المكان! أقريب موعدي مع العالم البرزخي أم بعيد؟ حِينها بدأ الرعب السيطرة على قلبي، وما أزاد الخوف بداخلي السرداب القريب مني، وفي لحظة غير مسبوقة شعرتُ بيدين تمسح على كتفيّ العريضين وتدفعانني إلى داخل السرداب، ماذا؟ أأصبحت أحلامي حقيقة؟ سوف أموت الآن؟ صرختُ بِكُل ما أوتيتُ من طاقة وركضت إلى الخارج.

سمعتُ قهقهة من كرار:

-ها يا أسد عبالك محد يدنالك هذا أنا كدرت عليك، كتلك يا عمير شقاي قوي وما تتحمله.

صرختُ بوجهه: مو هيج كرار أنت شبيك اكو واحد يتشاقه بهيج شقى.

كان حسين وإبراهيم يُحاولان أن يهدئا من عُكر الجو الذي حدث للتو، فقد فقدتُ السيطرة على أعصابي ومُستاء أيضا مِما حصل.

تقدم نحويّ كرار مُقبلًا جبيني ويقول:

-يلا ضلع راح أعزمك على نفر كباب يحبه گلبك.

تحولت الأجواء المشحونة بيننا إلى ضحكات مُتتالية، وكُنتُ كلما تذكرتُ الموقف وصراخي أضحك على نفسي وما فعلت كأنني طِفل يا الله ماذا فعلتُ أنا؟ والأشد إضحاكًا أنني نسيت كل شيء حين دعاني للأكل، فالكباب لذيذ للغاية والأكل هو نقطة ضعفي.

أحسستُ بأصدقائي الأحياء يقولون: أسيعود عمر مع رمضان؟ أم سنقضي رمضان بِدونه؟

وضعتُ يدي على صدري وكنت أقول لهم في سري: أنا بينكم ومعكم في كُل خطوة، أنا لم أمت، أنا معكم، تاللهِ إنني بينكم.

انهمرت دموعي على رِفقتي، فكيف لهم أن يصبروا بدوني؟ كُنا إذا غابَ عنا أحدنا لظرفٍ ما، نضجر ونشعر بأن مكانًا خاليًا للغاية فكيف بالميت؟! أعانهم الله وأعانني.

الحنين لأمي لا ينتهي، فبداخلي كثير مِن الحُب الذي لن ينتهي يوما، رُبما إن الشيء الوحيد الذي أشعر بالأسى عليه هو أمي، وبأني لم أقدر على أن أقرّ عينها بي وهذا ألم قلبي بحق.

هممتُ بالوقوف مُغادرًا مكاني فاجتماعُنا جميل أنساني كثير من الأحزان والأشواق المكبوتة داخلي، ولكن عليّ أن أشبع من أمي الآن فناداني هيد علي وسام:

-أين ستذهب يا رحال؟ فذو الوشاح سيأتي قريبًا.

رحّال (عمر): لن أتأخر، فقط سأشبع روحي من سكينة قلبي أمي الغالية.

لوحتُ مودعًا بيدي وأود لو أنني لا أعود وتبقى روحي مُرتبطة بأمي كما ترتبط المشيمة بالطفل، كانت خطواتي مُسرعة للوصل لأمي ولدارنا حيثُ المحبة والدفء، فتحتُ الباب ووجدتُ أمي أخي الكبير علي يجلسان جنبًا إلى جنب، يتجاذبان أطراف الحديث.

فقال لها: مِن بعد عمر يا أمي الناصرية ما بها روح، الناصرية ظلمة ما بيها فرحة شايفة يا يمه. كان الجماعة يصرخون بأعادة الدوام ونسوا دماء الشهداء اللي راح علمود مستقبلهم، وحاربوا كل شخص كان ثائرًا ضد الفساد يا يمه وربك إلهم بالمرصاد تخيلي هسه اجه مرض اسمه كورونا اجه من الصين وما معلوم من شنو مصنوع، «ولكن هذا المرض عجيب أمره، يكتسح الرئة ويجعل المصاب به لا يتنفس إلا من خلال الأوكسجين، وكثير الكحة وترتفع حرارته عاليًا ويلازم الفراش، ومُعدٍ إلى درجة كبيرة حيث تريد النظافة، وأن تكون مناعة الفرد قوية، حتى يستطيع أن يتغلب على هذا المرض، وكذلك يصيب جميع الفئات، إلا أن كبار السن من المحتمل أن يقضي عليهم لبنيتهم الجسدية الضعيفة، لكن إذا اكتسح محافظاتنا وعلى خدماتنا الرديئة نموت جميعنا".

أم عمر: يا يمه شون هالبلد بي يبقى دومه مظلوم ما يشوف الراحة لو شيصير جبناها بالحسرات من ذاك الوقت لهذا الوقت.

علي: يصفيها ربج يا يمه وإن شاء الله تصفة مثل ما نريد، وهالسنة أفرحك هم وتشوفيني خريج ومن الأوائل بالهندسة مثل ما تعودنا كل سنة.

أم عمر: يمه تفرحني وتخلي گلبي تدخله شويه فرح بغياب أخوك اللي سوه قلبي مليان هموم بروحته.

علي: يمه السنة أنتِ تلبسين القبعة وأخذلك صور بيها لأن أنت اللي تستحقين القبعة، ما وصلت لهل المكان إلا بتعبج يمه.

آه يا عُمر مررت سريعًا في هذهِ الدنيا، ولم تفعل شيئًا حتى لم تُشارك فرحتك أخاك وحتى تخرجه، أنا عُمَر بِدون عمْر.

من لا يعرف علي هو أخي الأكبر، الذي كُلما مررنا بطريق ظلام نشر النور بطلّته، حريصٌ عليّ لِدرجة كبيرة، تقلدته خلقًا وخُلقًا، تبعته عقلا ورُشدًا، أحبه.. أحبه جِدًّا.

تقدم بيّ العُمر وبدأت أذهب تجاه الشعر، حتى أنني أهملتُ دراستي ولحقتُ الأدب والندوات الثقافية في كُل مكان، لو كان شارع المُتنبي يحفظ الخطوات لحفظ خطوتي وطرزها، مُظفر النواب وعريان السيد خلف وغيرهم، أولعتُ بِهم وعشِقتُ حضورهم، تركتُ كل ما في يديّ عِند قدوم عريان السيد خلف إلى الناصرية بالمنتدى الثقافي.

كانَ كُلّ من كرار وحسين وإبراهيم رفيقا دربي في الثقافة أيضًا، كانوا يتواجدون معي في كل أمسية، نتشارك الأفكار ذاتها، ونعمل معًا في كل ما نُخطط له، ففي يوم وبعد العمل الدءوب على مواقع التواصل الاجتماعي، أصبحتُ مسئولا في إحدى الصفحات الرياضية لحبي الشديد لها، كان ما أنشره للناس يتصدر المراتب الأولى لِـدقة اختياري للعبارات، كان حال لساني مثقفًا وواعيًا.. كُنتُ صاحب قلمٍ حُر، وإعلاميّ مُنذُ بدايتي، ليتني أكملتُ خطوتي في الإعلام لكنتُ طالبًا فيه الآن، ولكن ما القول مع زمانٍ ومكان يقتل الأحلام ويسلب الطموح ويسرق الرغبة؟ في الحقيقة كُل ما يحدث هُنا بأن أعمارنا تتوقف في المُنتصف، يُمثل قتل الحق وأسكات الصوت ومحو العدل.

كانت أيامي جميلة، لم تُمحَ، ولن يقوى أيُّ عِلاج محوها، كانت أغلبها مُضحكة مثل ما كان أخي علي يوبخني:

- عمر! أنا لا أمنعك من تثقيف نفسك، ولكن لِدراستك عليك حق، وهي من ستصنع لك نفسك ومستقبلك.. لا تنجرف خلف شيء واحد وتترك الآخر، وازن بين الاثنين عزيزي، لا تُضيع حياتك من أجل الشعر فقط.

كان يخاف على مستقبلي أكثر مني حتى، كان الأخ والأب في الوقت ذاته، تحمل مسئوليتنا جميعنا، ولكن لم يكُ يعلم أن المنية ستنهي مستقبلي، حين فشلت في صف الرابع الإعدادي، ولم أقبل الخضوع للاختبارات النهائية لدوري الثالث، أجل، نحن بلد الأدوار الامتحانية الثلاث وقد تُصبح أربعًا، لا أحد يدري، بلد بإدارة فاشلة وتعليم مُتدهور ومريض، كُنتُ أتلقى التوبيخ من أجل دراستي، كنتُ مُهملًا صحيح، لكني لم أستطع الضغط على نفسي لتقبل الدراسة والكُتب المنهجية، فالدراسة لم تستهوِني لأنني وبكل ما أوتيتُ مِن صراحة، علمتُ أن الدراسة لن تعطيني ما أريده في هذا البلد.

لا فرق بين حَمَلة الشهادات العُليا والأشخاص غير المُتعلمين، كلاهما سيبحثان عن العمل نفسه ويكسبان الأجر نفسه، لا يوجد تقدير لهذا وذُل لذاك، فكلاهما مذلولان وبالدرجة والمعاناة نفسها، صحيح بأننا بِلاد الخيرات، إلا أننا في ضيق، قد نُخرت عِظامنا من الفقر والحاجة.

ولكني لم أكن أرغب بأن أحزن أمي وإخوتي وحتى أصدقائي، كُنتُ أدرس لأجلهم، فأكملتُ تعليمي حتى أصبح صاحب لِسان حق، وإعلاميًّا ناجحًا، وقد تجاوزتُ المراحل بِصعوبة، لكني في النهاية فعلت، كُنتُ كُلما أشعر بالضيق والملل أتصل بصديقي حيدر وأتحدث إليه عله يُخفف عني، ففي مرة قُلتُ له بِـضجر:

-هاا حويدر ما تطلع نتونس شوية؟! ترى تعبت نفسيتي من المواد هايه!

أجابني حيدر:

-ولك شبيك عمير؟! خلينا نقرأ حتى نخلص من شلعان الـگلب.

على الرُّغم من صعوبة الأيام إلا أنها كانت جميلة.. ليتها تعود! ولكن ما مضى لن يعود.

أعلنتُ الحرب، والحُزن والحِداد، عندما وصلت للصف السادس الإعدادي، المواد صعبة وجافة، البطل فينا من يتجاوز هذهِ المرحلة سالمًا بِدون أيّ أضرار نفسية وجسدية.. درستُ في المدرسة وسهرت ليالٍ والأيام تمر بسرعة البرق بي، والكتاب الإعدادي هذا لا يُفارق يديّ أبدًا، حتى حلتْ أشهر الدراسة الحقيقة التي تسبق الامتحانات، كنتُ كلما أفكر بأني سأقابل هذهِ الكتب لأشهر طويلة أشعر بالغثيان، ففكرت أن أطرد الأفكار السلبية بالتنزه مع أصحابي، اتَّفقتُ مع حيدر على ذلك متكأً على ذريعة تغير الأجواء والاستعداد للامتحانات، عليّ أن نذهب في نُزهة شبابية، وأن نستمتع بالأجواء الطبيعية الجميلة في منطقة السديناوية (منطقة تقع في محافظة ذي قار مليئة بالبساتين والأشجار). كانَ يومًا من عمري لن يتكرر أبدًا، عشت أفضل وأجمل الساعات معهم، كنتُ وسط ضحكات وحكايات وبين جلسات شعرية مِن حيدر، والتي كانت مُتميزة للغاية وبشكلٍ ملفت، كنت حينها أشحن طاقات إيجابية للدراسة والمضي قدمًا لتحقيق حلمي بالإعلام، فما أن انتهت المرحلة المجهدة في الدراسة، وبدأت الامتحانات، كنت أخرج كل يوم بدعوات أمي وكلامها، أجب ولا تخف، لا تتسرع في الإجابة، كن مركزًا بالأسئلة، لا تمسح شيئًا لست متأكدًا منه. والقلق الذي يعتري عائلتي، وخاصة أنها السنة الثانية لي في السادس. إلى أن انتهيت، وبقي خوف النتائج يلوح في أفق سماي ويغبرها. كنت أدعي في كل صلاة أن يوفقني الله لما يرضيه ويرضيني به، وأنا أنتظر كما تنتظر الطفلة مجيء أبيها من الحرب. وما هي إلا أيام كنت فيها عائدًا من الزيارة الأربعينية، استقبلتني أمي بالصلوات والهلاهل، وأختي تنثر الجكليت عليّ، وتقول لي ألف مبروك يا ولدي نجاحك حققت حلمك وحلمنا. كانت فرحة أمي لديّ أعظم من نجاحي في ذلك الوقت.

أخرس صوت التِلفاز العالي ذكرياتي المُتتالية، قرأتُ خبرًا بـدخول فايروس كوفيد 19 للعراق عن طريق شخصٍ مُغترب لُيكمل دراسة الشريعة هُنا في أرض العراق. فقال أخي محمد: هاك أستلك كلنا راح نموت هلمرة، إذا هي الصين بكوادرها الطبية القوية وبريطانيا العظمى وإيطاليا ماتوا إلهم ملايين، الله يعلم أحنا شـگد راح يموت منا!

تصريح الرئيس الإيطالي بث الرُعب حين قال «انتهت حلول الأرض، الأمر متروك للسماء» وأغرورقت عيناه على أعداد الوفيات الكبيرة في دولته، لا مُستشفيات تستوعب أعداد المصابين ولا نعوش تكفي للأموات، فأيّة حال وصلت لها دولة قوية كإيطاليا؟

-الصين ماكو شي ما أكلته، الله خالقنا هوواي حيوانات بيها خوش لحمة شكو رايحيين تاكلون خفاش؟ من خفش خفشكم يالصين.

ردّ فعل أخي محمد مَضحك جِدًّا، حيثُ ضحِكوا جميعًا على ما قاله، التفتوا على والدتهم رأوها تضحك، قالوا بفرح: أيييي يبعدي ضحكي حتى الدنيا تضحكلنا.

اشتقتُ إليكِ يا أمي، بأن أمازحكِ وأن أجالسكِ، بأن تَرنَّ ضِحكتكِ في أذنيّ، بأن ينير دُعاكِ حياتي، أن أقبل يداكِ وأنال رضاكِ ورضا الله.. اشتقتُ أن أشم عِطركِ وأن أبتسم كُلما ابتسمتِ، بأن تعطيني المال، وتشتري لي الأشياء التي أحب، أنا يا أمي مُشتاق جِدًّا مشتاق.

دخلوا كلهم لِغرفهم ينامون وأمي فقط من بقيت مُستيقظة، تتحرك عشوائيًّا هُنا وهُناك، عساها تجدني في أحد الزوايا، لعلي أخرج لها من رُكن كئيب.. إنها تتعذب مِثلما أتعذب أنا، وأموت بعد ما مِتُّ ألف مرة.. أمي التي علقت صورتي على الحائط وتنام قُربي، أمي التي تمسح على وجهي أشتياقًا، أمي ليتني والله ليتني أعود لأطفئ شُعلة العذاب هذهِ، أنا آسف يا أمي على تعذيبي لكِ.. آسف.. آسفٌ جِدًّا.

-يمه عموري شونك بالكبر مرتاح بردان محتر شون وضعك هناك. يمه عموري تسمعني واني روحي طاكة عليك ومشتاقتلك.. يمه عمير ارجع لي ارجع خل أضمك وما اطلعك منوكالك أريد وطن اني أريد وليدي والله يعمير شيصبرني على فركاك.

تحركت يمينًا وشمالًا، وأنا أتبعها وأخبرها بأني هنا، بأني بخير، لكنها لا تراني. أوجعت قلبي، تالله أنا أتهالك على حُزنها، ودعوت بأن تجلس وتهدأ، وقد حدث ذلك، فقدت استلقت بألم وهي تربت على صدرها، تحولت الوسائدة إلى بحرٍ من الدمع، لم أكن أعلم كيف تجني الصبر، وهي تدَّعي القوة أمام الناس وتتهاوى مِن فرط الحُزن وحدها، ما مِن مواسٍ لأمي غير الله، فيا الله أفرغ عليها صبرًا. بعد بُكاء ولوعة لن تنتهي أغمضت عينها ونامت، وما أجمل نومها ذاك، أمي جميلة الروح والمظهر، لم أحتمل أكثر فوضعت يدي على شعرها وهي نائمة، وبدأتُ تقبيل كِلتا يديها محاولًا إشعارها بي وبوجودي، كي تطمئن وتسكُن قليلًا، ولتعلم بأن روحي لن تُفارقها وإن فارقها جسدي.

لم أطِق صبرًا أمامها، فصرختُ يا أمي بالله عليكِ اشعري بي، فإنني أتلهف لكِ شوقًا، وتعلمين بأني في محاربة مشاعري فاشل، أيمكننكِ لمسي الآن؟ قولي اسمي، وأنتِ تنظرين نحوي، أمي، أنا لم أتركِكِ، واللهِ لم أفعل، هم سلبوني منكِ، والحنين لا يرحم أبدًا يا أمي لا يرحم.

جلستُ على رُكبتي، وأنا مُنهار قُربها أبكي، وأيُّ بكاء أبكي شوقي لها.. فلا وجود حقيقيّ، ولا لمسة تُطمئن قلبينا، استسلمت ووضعت رأسي على وسادتها جنب رأسها وأغمضتُ عينيّ أستشعر أمانها، وكأنها وتقول لي: يا ولدي، حتى وأنت بعيد أمانك عندي، راحتك يمِّي.

سرقني النوم من حزني وحنيني بجانب أمي، جلستُ على صوت أنين أمي وهي تقول: عُمَير يمه.. يمه عمير شبيك يمه عمير اني أدري بيك يمي يمه عمير.

فتحتُ عينيّ وجدتها تتكلم في نومها، علمتُ أنها تسمع صوتي، قُلتُ لها: أتشعرين بي؟

وهي تقول:

-أشعر بك.

شكرًا لك يا الله لشعورها بي، اللهم لك الحمد على هذا، اللهم لك الحمد.

بدأ صوتها بالارتفاع وهي تئنُّ في نومها حتى دخلت عليها أختي نور، مُحاولةً تهدئتها وأن تخفف من ألم قلبها من الحلم الذي يزورها يوميًّا، ذلك الحُلم الموشح بـالسواد.. المُلطخ بالحُزن عليّ وعلى فُراقي.

نهضت أمي من مكانها وخرجت من الغرفة بهدوءٍ مخيف، راودتني فكرة بأن أختفي لأيامٍ قليلة أهدأ فيها قليلًا، وأسكن من أشتياقي كي أعود إلى جانب الشباب، ولكن قلبي لا يقوى على فراق أمي وعائلتي، كيف سأفعل؟

خرجتُ إلى الشارع في وضح النهار، ورأيت جميع تاناس يتهافتون لـِشراء الكمامات، وبالطبع أصبح السعر أضعافه، ويا ويح قلبي على الفقير المسكين الذي لا يملك المال الكافي لشرائها، سيموت من الوباء، وإثمه دين لن يُسدد في ذِمة كل سياسي وحاكم رضي بأن ينام عِراقي على فقر مُدقع.

ورأيتُ كيف يفرضون حظر التجوال والحجر على المناطق، وفرض الغرامات على كل من يخرق أوامرهم، فنحن شعب كبرنا على أن نكون ضد القانون دائمًا، فهو لا يصب في مصلحتنا أبدًا، لا أعتقد بأن هذا البلد لن يصمد تجاه الوباء. تجولتُ في الناصرية دون ملل أو كلل، بِدون أن أتذمر.. فقط أسير وأنظر لناصريتي، مِثلما ينظر العاشق إلى حبيبته. أرض العِزة والصمود، أرض الغيرة والشُجعان، الأرض التي لن تنحنيَ مهما حدث.

مرت أيامٌ ثِقال وتوالت الأحداث، وتوقفت الحياة في غالبية البلدان، والحجر الصحي مفروض على جميع الناس بدون استثناء، وكأن الوباء مصيبة حلت على العالم، ما زِلنا في صِراع للنجاة. فالمرض الحقيقي بِداخل كل من يدّعي الوطنية، وفي المقابل يُضحي بأبناء جِنسه من أجل المال أو عرض دنيويّ زائل.

خرج الشعب على مراحل متتالية لمحاربة الذل والظلم من ثورة تشرين، والانقلاب وثورة 14 تموز، وانتفاضة 1991 حاولوا فيها تغيير العراق، حاولوا أن يغيروه بكل ما يمتلكون من قوة، ولكن تخريب الصفوف كان منّا وفينا، حتى وصلنا لسنة 2003 بعد سقوط نظام السابق، قال هذا الشعب: سنرتاح، سنعيش كما يعيش الإنسان الكريم. ولكن لم نكن نعلم أننا سنُذل أكثر من ذي قبل، ولم يهدأ لنا بال، ولن يُرف لنا جفن ونحن في الذل غارقون، مقدمين آلاف الشهداء وكل يوم يشهد صرخة لأم ثكلى وصرخة لأب مفجوع ولأخت وحبيبة، في كُل بيتٍ عِراقي سكن الألم والبكاء، سكنه الفقد وتعلقت على جدرانه الخارجية أقمشة النعي السوداء، هذا هو العراقيّ، وأين العراق؟ العراق الذي أشبع شعبه الحسرات والموت والدم أصبحنا نولد للشقاء فقط.

وثم حاولوا التغيير في الأربع سنوات الدامية 2011 و2012 و2013 و2014، وحتى عام 2016 دخلوا إلى المنطقة الخضراء وغيرها من الوقفات والمسيرات، كانت جميع سنواتنا تشرين، ولكن لم يسبق لنا أن حققنا نجاحًا في تشرين كهذا، فهذا التشرين فيه تفتحت العيون، وأدرك الشعب حقوقه، والألسن المقيدة تحررت، والخوف الذي يسكن الأرواح قد قتل، وجميع الناس صرخوا

«أريد وطنًا»، أسأتي اليوم الذي ينتصر فيه تشرين الأحرار ويفرح فيه الشهداء؟ أم أن دماءنا ذهبت سُدىً!

كان تشريننا مُختلف بأولاده الشُجعان، الثائرون ضِد الظَّلم، حين استشهد صفاء صاحب مقولة: «محد يحب العراق بـگدي»، عاد بي شريط الزمن إلى أول مرة التقيتُه فيها، حيث كان بمظهرة الجميل ووشاحه الملتف حول عنقة يزيده جمالًا، وكانوا يلقبونه ابن ثنوة، كم كان جلوسي معه عظيمًا، جلسنا معًا في أحد مقاهي المُتنبي العتيقة ذات العطر البغدادي الجميل، كانت لجلساتنا ألف معنى وألف شعور، علمني كيف يكون حُب الوطن، يالأرض العراق كيف روت ظمأها من دماء أبنائها، ألم تكتفي؟ أم مازالت مُستمرة بفعلها؟ ألن نستريح؟

لن ننعم بالراحة إن لم تتوحد الصفوف وإن لم نكن شعبًا عراقيًّا قلبًا وقالبًا ويدًا بيد، تسقط عنا كُل المسميات وأن تُمحى الاختلافات وأن نكون فقط عراقيين.

في أثناء تجوالي تذكرتُ أيام تشرين حين قالوا بأننا سلميين، وسنغير البلد للأفضل وأطلقت حملة «صدى التغيير»، الحملة التي كان مسئولًا عنها شابٌ يحب أن يقدم يد العون للمحتاج، فهم عرفوا بمساعداتهم الكبيرة للأيتام والمحتاجين. وأراد أن ينقل للعالم بسلمية المظاهرات، وكذلك دفعه حب الوطن للقيادة في أرضه، أملًا بأن تتحول أرضه من صحراء قاحلة إلى أرضِ خُضرة وخيرات. فأطلقوا مبادرة الرسم والتنظيف وغيرها من الأعمال التي قد تفيد الساحة.

كنتُ أشاهدهم وهم يرسمون، وكنتُ أنشر الألوان معهم على الجدران نردد:

"ثورتنا لن تُدوّن على جدران الوطن فحسب، بل ستُدون في التاريخ أيضًا".

يا لها من أيام أعطت كثيرًا من السعادةِ والفرح، كان ينقصنا النصر فقط، رمضان هذا العام مَرّ وكل بيت فيه صورة لفقيد راحِل. إلى الآن أتذكر حين مررتُ من أمام أحد النوافذ ورأيتُ ما يُعرض على التِلفاز، مسلسل «كما مات وطن»، أزحتُ ناظري قليلًا فــوقع ناظري على امرأة مُسنة تلطم رأسها وتبكي على ابنها الذي غادرها مُسرعًا، تاركًا إياها في ألم كبير تقاسيه لوحدها، كان رمضانًا ثوريًّا كـثورتنا التي أعطت كثيرًا من الدماء دون جدوى إلى الآن، هل سنحصل يومًا على ما نريد؟ عراقًا خاليًا من التبعية والذل. قادتني قدمايّ لِـجسر الحضارات بدون أيّ وعي مني، وعيناي محدقاتان بـنهر الفرات، وهِمّة الشباب الذين أكملوا جميع الخيم لتتسع لنا، فأعدادنا فاقت الألف شهيد، وأخبروني بأن ذا الوشاح يُجهز مأدبة لحضور فتاة ذات شخصية قوية، ولها مكانة مرموقة بين الناس وكما أن لها صوتًا غيورًا، حيثُ وقفت امرأة صغيرة في العُمر بوجه الظلم والتهديد، فتسألنا جميعنا من ستكون هذهِ الفتاة؟ كما تسألت لِمَ أنضم لصفوف المغدورين، ومن هم في الأساس؟!

ولماذا يلقبونني «بـرحّال»؟ وما سر هذا الاسم؟ اختاروه لي كما يختار الوالدان الاسم لابنهما عِند الولادة، مسكتُ رأسي وكأنني أحاول أن أمنعه من الانفجار، كُنتُ أتألم كثيرًا ولا أحد يعلم بما أقاسيه.

وضع أحدهم يده على كتفي الأيسر بقرب المكان الذي أصبتُ فيه، قال لي بصوت جميل: آه يا رحّال، منذُ أيام وأنا أبحث عنك، أخبروني بأنك تجوب باحثًا عن شيء يسد فراغ حنينك الموجع.

سألته: وهل هناك شيء يسد حنيني؟

ذو الوشاح: الشوق يؤلم الأبدان، ويمزقها ببطء وكأنك تمرر سكينًا على جميع أجزاء جسدك، وأنت على معرفة بأنها ستترك جروحًا، ولكن ليس بيدك حيلة ولا تستطيع إيقافها.

أعقبتُ على حديثه وأنا أحرك رأسي، وعيناي على النهر: لا عِلاج للشوق، وإن اختفى، فآثاره لن تختفي أو تزول.

ذو الوشاح: لمَ لا تترك كل شيء مِـن يديك وتدعنا ننضم للأصحاب، اليوم هُناك أمسية شعرية باسم "أرواحنا حرة".

كان يحاول التغيير قليلًا مِن نفسي.

عمر: قبل أن نذهب لديّ سؤالان، أأستطيع طرحهما؟

ذو الوشاح: قل يا رحال ما يجول في خاطرك؟

عمر: لِمَ أسميتموني بــرحال؟

ابتسم ذو الوشاح قبل أن يجيب، لبث ثوانٍ حتى قال: سؤالك لطيف، انظر يا رحّال، كل ما في أمر التسمية أنك صغير، وأحلامك كبيرة، وما زال أمامك مُستقبل جميل ومُزهر، لكنك رحلت باكرًا جِدًّا، وما كانَ مِنا إلا أن اخترنا لك هذا الاسم.. عمر الراحل عن أحبابه وأحلامه مِن أجل وطنه، قبل أن يحقق ما كان يجب عليه أن يحققه، أن يبني مُستقبلًا عظيمًا مِثلما أراد بالضبط.

عمر: لو عادت روحي لجسدي وقالوا بأن أختار اسمًا جديدًا، لاخترت رحال.

ذو الوشاح مُحاولًا تناسي الحزن الذي اعتلى صوته حين قال لي ضاحكًا:

-قد خُتم على روحك الشهادة فلا مفر مِنها، ثُم قل لي، ما سؤالك الثاني قبل أن أغير رأيي، فأنا رجل مشغول ولديّ كثير من المسؤليات.

عمر: لا تقل هذا، السؤال الثاني ينخر خلايا عقلي، وأريد جوابًا شافيًّا له.

أشار ذو الوشاح بيديه علامة على التساؤل فقلت:

-أخبرني الشباب في أول لقائي بهم بأنك ذهبت مع المغدورين، من هؤلاء؟ أهم معنا أم مِما سبقونا؟ أهم ثوار أيضًا.

-ذو الوشاح: لك أن تتخيل يا رحال، أن تكون في بلد يسوده الظلم.. ومليء بالذئاب، أن تكون تحت سطوة الحاكم الفاسد، أن تكون أنت الأرنب الذي قد يؤكل بلمح البصر من السِباع المآمرة عليك؟ في كل مرة أتذكر أننا في وطن لا يمر عليه الحَوْل إلا وقد وقعت مجزرة.. مجزرة أكبر من سابقتها، أي مِنها يُثقل كاهلنا؟ أم على أيّ انفجار يجب أن نحزن؟

على أي بيت مهدوم لنا فيه ذكريات نبكي؟ أنبكي على شهدائنا؟ أم الأشخاص المتوفون وهم على قيد الحياة؟ كُل شيء لدينا ينتهي، من أشخاص، من بيوت وعمارات، من حب، من فن، من كِتابات تنعي خسارتنا.

كان ينطق بحسرة وعيناه تكتسح بالدمع، والتي لم تلبث حتى تساقطت على وجنته، مسحها واسترسل في حديثه:

-لا أحد يا رحال يعلم كم قاسوا من الألم، هم من تمنوا الموت من شدة العذاب، حماة الوطن ذلوا، هم من كانوا يقفون تحت شمس العراق لينتجوا عراقًا آمنًا، من تركوا أمهاتهم وزوجاتِهم وأولادهم، هم ما قتلهم الشوق لحبيباتهم قبل أن يقتلهم دعاة الدين «داعش".

حُرقة قلبه تنفجر خِلال عينيه، وتنعكس في صوته الذي اختفى في آخر كلمتين..

-قم يارحال، قم، لتذهب إليهم، لن أستطيع الشرح لك، لنذهب لترى كُل شيء بأم عينك. لا يبعدون عنا كثيرًا ستصل في دقائق، ولكني لن آتي معك؛ الفتية يحتاجونني، خذ العنوان واذهب وسأوافيك حالما أنتهي.

-عمر: لا مشكلة في ذلك.

كيف لم يجنِ من العمر سوى هذا الأنين فوق أوراقٍ..
ستطويها السنون

عدنان الصائغ

أخذتُ العنوان بعد أن وصف لي المكان كي لا أدخل في متاهة المناطق، وأخبرني بأنهم سيتعرفون عليّ على الفور، لا أعلم كيف! لكنهم سيعلمون، وكما أنهم يحملون علامات مميزة سأكتشفها في المستقبل القريب.

لوحتُ له مُودِّعًا وأردد في سرِّي «هيا يا عمر، أنت الذي رأيت العجب من اليوم الذي فارقت فيه جسدك، لا بأس بمزيد».

وصلتُ للعنوان المكتوب على ورقة صغيرة، وقفتُ أمام اللوحة التي وصفها لي ذو الوشاح، التي تحمل شكل نهر وفيه دماء «الخنجر قد غُرز في ظهورنا».

كان كُل ببلد صغير مُرتب ومُتناسق، وكان كُل شيء فيه غاية في الروعة، المناظر فيه تتسابق على من سيكون الأجمل، كانوا أصحاب تِلك المنطقة ينظرون إليّ باستغراب لأنني لستُ فردًا مِنهم، فهم كانوا يتوشمون بوشم الخنجر على كفوف أيديهم، مرت أمامي جميع الأعمار التي سُرقت غدرًا وأودوا بها إلى الثرى. وبينما كنتُ أعبر الطريق وجدتُ نفسي أعبر بين الأشخاص، ولم أستطع فعل شيء خلا التحديق بالورد الجميل والأرض الخضراء، كان كل شيء فيها جميل.. اقتربت مِن منزلٍ أمامه شجرة السدر، مددتُ يدي بهدوء لأرفع الشيء المُتلألئ على الأرض، سحبته من تحت الحجر، فكان خاتمًا، مكتوبٌ عليه: «اللهم اجعلني في درعك الحصين». كان شيئًا قاسيًا، وفي الوقت ذاته مدعاة للأمان بأن نودع أنفسنا بحفظ الله وعنايته، والحمد لله على كُل شيء. اتنبهت إلى وجود رجل مُسن تظهر عليه ملامح الشيب والوقار، ذو حضور مُهيب، عيناه جميلتان على الرُّغم من كِبر سِنه وهِندامه المُرتب الأنيق، جلس على الكرسي الحديدي المطلي باللون الأبيض ثم أشار نحو الخاتم وقال:

-هذا خاتم عُرس ولدي.

عمر: آوه، أنا أعتذر مِنك يا عم، ولكنه لفت نظري كثيرًا حين رأيته على الأرض.

تقدمت نحوه لكي أسلمه الخاتم، ولكنه تحدث فوقفت أنظر نحوه:

-لا أسمع ما تقول، ولكن أعتقد بأنك تعتذر، اعذرني يا بُني؛ فقد فقدتُ سمعي في أثناء التعذيب على يد «داعش"، أعلم بأنك لستَ مِنّا ولكن هل رأيت ولدي؟ فقد تأخر على زفافه وعروسه في انتظاره.

دُهشت مِمَ سمعت فأي زِفاف هذا؟ وأيُّة عروس هذهِ تنتظر الآن؟ تلفتُّ في كل الاتجاهات، أبحث عن عروس أو أيّة علامة تدل على عرس أو أي شيء من هذا القبيل، ولم أجد.

أتى إلينا شاب ذو مظهر جميل وطويل القامة، وذو عينيين عسليتين وجسم ممشوق، انحنى بطوله للرجل العجوز يُقبل رأسه ويقول: «والدي العزيز» أشار بيده، وكأنه يقول لنا بأن ندخل إلى الداخل لنرتاح، ونظر نحوي قائلًا:

-أهلًا وسهلا بك يا رحال، لقد أُعلمتُ بخبر قدومك قبل قليل، سعيد بمجيئك.

-أنا أيضًا سعيد بمعرفتك، أمن الضروري أن أعرف عن نفسي أم وصلتك المعلومات؟

الشاب: لا يلزم ذلك، فذو الوشاح قد أخبرني بكل شيء عنك. ولكن دعني أعرفك بنفسي، أنا عليّ ستار محمود اللامي، خريج بكلوريوس تربية بدنية من جامعة ديالى. كأي شاب خرجتُ باحثًا عن وظيفة، فكما تعلم حتى إن كنتُ ممن يحملون شهادة الدكتوراة، ولا تملك تبعية ستبقى مهمشًا حتى يفرج الله الكرب، أصبح التجنيد مفتوحًا للالتحاق بصفوف الجيش العِراقيّ لُمحاربة ما يُسمى «بالدولة الإسلامية» وهو تنظيم إسلامي، يحمل الرايات السوداء، يطلقون اللحى، ويقتلون كل من يعترض طريقهم حتى من له صغائر الذنوب.

عِندما كُنا نشاهد التلفاز ونشاهد حصيلة القتلى وكمية الرعب المُنتشرة في مناطقنا، تحولت مظاهرات البسيطة إلى أداة لتسهيل دخول داعش لأراضينا، انتشر الرُعب وبشكل جنوني بين الناس في الأراضي الشمالية، هرب من هرب وغادر من غادر، ومن سافر خارج البلاد ونجا من الموت والخزي الذي سيلطخ تاريخه. كان حد السيف على رِقابنا، والحِرمان يطوقنا من كُل جانب، لا شبكات إنترنت، ولا شبكة إتصالات، مقطوعون عن العالم الخارجي ولا نملك أيّة وسيلة اتصال مُمكنة، كنتُ مُجرد شاب يُريد أن يكوّن نفسه ويكون له بيت خاص بِه مع حبيبته و...

قاطعتُ سلسلة كلامه بسؤالي:

-هل كنتُ تحب فتاةً؟

علي: أجل، كنتُ أحب، بقيَتْ مع من بقوا معززين مُكرمين، أعطيتها الكرامة والترفع عن الدنس بـدِفاعي عن الأرض ومحاربتي لداعش، بقيتُ هناك مع من بقوا وحيدة ترتب صور الماضي وتُضيء حولها شموع الوفاء.

-عمر: حسبنا الله على كُل ما أودى بنا إلى داعش.

خبّأ دموعه بين كفيه، إنها دموع حرقة ولوعة اشتياق، وكأن روحه سافرت لها وطافت حولها، عاد بي الزمن إلى حيثُ أيام الجامعة، والفتاة التي كنتُ معجبًا بها، والتي لم أستطع حتى معرفة اسمها، ولا من أين هي، كل ما أعرفه عنها خُلقها الرفيع وشكلها اللطيف، كانت تأسر قلبي بحق.

علي: يبدو على ملامحك أنك تذكرت محبوبتك أليس كذلك؟

رحال: أجل، تذكرت محبوبتي التي لم أستطع حتى أن أعرف اسمها، وكأنه الحُب الذي انتهى قبل أن يبدأ.

علي: لقد بنيتُ لها منزِلا، وكنتُ سعيدًا بأنني سألتحق بصفوف الجيش كي نتخلص من داعش وأتزوجها، كنتُ أتوقُ بأن تصبح سيدة منزلي، وأن نعيش حياةً هانئة، ذهبتُ إلى هُناك، وبعد أيام من المقاومة قضيتُ أيامي الأخيرة في محطات متعددة، ولا نعلم متى ستعطر أرواحنا بالشهادة، كنتُ أزور أهلي لفترة قصيرة وأعود للمُقاتلةِ والجهاد، وبقيتُ على هذا الحال إلى أن انضممتُ رسميًّا للجيش العِراقي. توقف قليلًا ثم أردف:

-في مرة مِن المرات جاءني اتصال من والدتي، كان صوتها يحمل أثقال الدنيا على كاهله، وتسأل عن حالي بطريقة غريبة وبين موجات صوتها الخوف والارتباك..

سألتها: يوم شنو شبيج خوما صاير شي؟

أمي: لا يوليدي ماكو شي أنت ارتاح وديربالك على نفسك لا يصيرلك شي.

سمعتُ صوت بكاء..

علي: أمي بالله عليج شنو صاير بابا بي شي أنتِ بيج شي؟

أمي: يوليدي أبوك أخذوه داعش ومحد يعرف عنه هسه شي واني هسه على شباك الانتظار. بس لا يخلص الوقت حلمنا ويصير لأبوك شي.

لم أعد أستوعب شيئًا وكأن الوقت توقف والهواء قُطع عني، صدمني ما قالته أمي وأصبح يسيطر على كُل خلية في رأسي، كيف سأخلصه من أيديهم؟

استرسل عليّ في سرد قِصته قائلًا:

مرت أيام طِوال ونحنُ لا نعلم أيّ شيء عن والدي، ومِن شد يأسي وعجزي عن تحريره، بِتُّ أبكي، أبكي وكأنني طِفلٌ صغير.. حتى جاء زميلٌ لي يخفف عني: أتبكي يا علي؟ أتبكي وأنت مصدر القوة؟ هوّن على نفسك ليهون الله عليك.

أجبته: كيف لا أبكي على أبي، كيف لا أبكي عليه!

بعد أن انهارت أعصابي من فرط البُكاء، أكملتُ قائلًا: ودعتُ عائلتي على أمل اللقاء بِهم وأراهم فقط سالمين، ولكني الآن فاقد لوالدي، أجلس مكتوف الأيدي، تأكلني الحسرات وقلة حيلتي.

حتى اتصلت أمي، وقبل أن يصلني صوتها وصل صوت إخوتي يبكون، وصراخات تتعالى من سماعة الهاتف، شعرتُ بأن شيئًا سيئًا قد حدث، حتى نطقت أمي بصوتها المبحوح من كِثرة البكاء تقول لي:

-أبوك قد فقد سمعه من أثر التعذيب يا ولدي.

سقط الهاتف مني ولم أقوَ على سماع مزيد من الأخبار، ذكرتُ الله ليمدني بالقوة وأعدتُ الهاتف إلى أذني أسال أمي عن حال أبي لتقول لي:

-حالته خطرة جِدًا، فقد عذبوه دون أن يرُفَّ لهم جفن، لم يتحرموا شيبَ شعره ولم يكفوا عن تعذيبه.

أغلقتُ الهاتف وكأنني أعلم بأنها نهاية والدي، وبأنه سيغادر إلى دارٍ خيرٍ مِن داره وإلى حيثُ ربٌّ رحيم.

وفي تِلك الأثناء جاءنا نبأ من آمر الفوج بأن يتم نقل مُعسكرنا إلى سبايكر في القصور الرئاسية في مركز محافظة صلاح الدين –تكريت.

جهزتُ نفسي للانتقال، اتصلتُ بأمي؛ أنا ضائع بين حُزني على أبي وحالي المشتت هُنا وهُناك، همي على بيتنا الذي فقد السند والعمد، موقفي حينها جعلني لا أشعر بشيء، كنتُ رجلًا مُثكلًا بالألم، بداخلي دمٌ يفور ويدفعني أن أنقض على كُل داعشي وأقتله وأشفي غليلي من قتلهم أبي.

تم نقلنا إلى سبايكر بطريق بشعة للغاية، حيثُ كانوا ينقلونا بشاحنات صغيرة، وبأعداد كبيرة للغاية كل القدر لمقام إخوتي الذين معي، ولكن كانوا يعاملوننا معاملة الحيوانات، لم يزودونا بالسلاح المطلوب، ولم يزرنا مسئول، بعدها علِمنا بأنه ترك المُعسكر، ترك جنوده في معسكر التدريب دون عتاد أو أي شيء يحتمون به. فُوجئنا بأن علينا ترك كُل ما يثبت هويتنا من سلاح وملابس ونسير عائدين لمنازلنا وبحذر شديد. اتصلتُ بأهلي وأخبرتهم بأني سأعود في غضون أيام، كنتُ على الأقل سعيدًا لأني سأرى أهلي، ولم أكُن أعلم بأن الله كتب بأن يكون طريقًا للموت لا لبيوتنا، طريقًا مُعطرًا بالأنفاس البريئة مُوصلًا بنا إلى الجنة. لبسنا ملابس مدنية ولُثمت وجوهنا تاركين كُل شيء خلفنا وسِرنا بهدوء كي لا يلحظ داعش وجودنا، لم نكن نعلم بأنهم يتربصون بنا بين التِلال ويكيدون لنا كَيدًا، فنحن سِلعة بيعت لداعش مقابل الملايين والدولارات، كانوا متجهزون لطحن أكبر عدد ممكن مِن الشباب.

انقضوا علينا وأسرونا في القاعدة الجوية، وبدءوا تعذيبنا، عدد مِنا ذُبح، ومِنا من أنزلوهم من السيارات ويأخذونهم إلى حيثُ ضِفاف نهر دجلة ويتقلونهم ويرمون جثثهم في الماء، مِنا من كانت مربوطة أيديهم وغُدِر بهم بالإطلاق المُباشر على الرأس، جربوا فينا كُل أنواع القتل والتعذيب.

لا وجود للتُّراب على الأرض، كانت عِبارة عن دماء، دماء أصدقائي ورفقتي، يصورون نهر دجلة الذي بات عبارة عن لون دم ويفتخرون بقتلهم لنا، فعلوا أشنع ما يمكن للإنسان فعله، حتى ما لا تستطيع تخيله.

تنهد ثُم أكمل:

وبعد تخطيط عميق ومحاولات للهروب استطعنا أنا وقليل مِن الرفاق، استنجدنا بأحد العشائر وقتها فقط تنفسنا بأمان، هربنا من داعش، يا الله كم كان الأمر يستوجب الشُكر، اتصلتُ بأمي أبشرها وأطمئن قلبها بأنني بأمان، وألا تقلق عليّ وأنني في بيوت أحد الشيوخ، وأن تدعو الله بأن أعود لها.

-ولكن يا رحّال قد غدروا بِنا وقتلونا، وضعوا أجسادنا في أكياسٍ للقُمامة ورموها! قتلونا بطريقة لم يشهد التاريخ ببشاعتها، ما زاد الوضع سوءًا جُثتي التي لم تستقر في مأواها الأخير، بل وجدوا مني عِظامًا مكسورة في عام ألفين وثمانية عشر.. حللوا ما في الكيس وعرفوا أنه أنا، وأعطوا ما تبقى مني لأمي.

عينا عمر لا تكف عن البكاء، يمسح دموعه بكف ويتذكر الأيام التي كان يشاهد فيها المقاطع المصورة لتلك المجزرة، مجزرة لا تُمحى مِن تاريخ العراق، على الرغم من كُل ما حدث من انتكاسات ومجازر، ولكن سبايكر ستبقى إلى الأبد جُرحًا ينزف، ينزف بِكل شابٍ راح ضحية مؤامرة وصفقات ملعونة، رحل بسببها ألفٌ وسبعمائة شهيد من مُختلف الأعمار والطوائف، تركوا خلفهم بوابة أسموها بــبوابة الشهداء..

احتضن علي رحال وأخذ هو يُطبطب على قلبه: هون عليك يا عُمر، نحن متنا لأسمى سبب، متنا ونحن نحمل نقوش الوطن على قلوبنا، متنا مغدورين لا غادرين، غادرنا ضِفاف نهر دجلة في مدينة تكريت إلى الجنان بإذن الله. عليك وعليّ وعلى جميع الناس الفخر؛ لأننا نموت في سبيل الوطن،

ليحيا هو بسلام ونحن بِحفظ الله. أسمع أمي كُل ليلة تردد وهي مرتكزة على سجادة صلاتها، مُتوجهة لقبلتها.. يا ليتك تأخذ قلبي تحيا بِه، فيكفي أن تكون أنت ولا أكون، ولكنك اخترت الحياة الآخرة، وقد قررت الرحيل إلى العالم البرزخي باكرًا. يا ولدي أدعو بأن تأخذني الأحزان إليك، وأبقى في أيم أنانيتي أناجيك وأعتب عليك، هنيئًا لك ولوالدك الجنة، بلغ كُل حبيب تركنا السلام.

-يا رحال، هذهِ الكلمات التي تنطلق من شفتَيْ أمي تجعلني أرتجف طالبًا مني العودة إلى الدُنيا وأجلس في حضنها وأبلغها سلام أبي واشتياقه، وأبلغ محبوبتي حُبي الكبير الذي لا ينتهي ولا يمكن لشيء إيقافه..

قطع مُتعة كلامنا ذو الوشاح بقوله:

-ها شباب كاعدين متونسين تذكرون شلون اجت روحكم لهنا.

عمر: ذو الوشاح شنسوي يمعود هو احنه جبناه بضحكة وسالفة وشقى لو جنا بحلك الموت.

علي: ياهلا بشاحي شلونك، اعذروني بس أتأكد من والدي وأشوف وضعه وأجيكم، تعرفون الشوك للأهل ما يخلص والدي كل أفكاره يم أهلي.

ذو الوشاح: علاوي على راحتك. بس اسمع اليوم اجيت مو بس علمود رحال حتى تبلغ الكل إن نجمع بحفل عشاء مرتب لحضور شخصية مرموقة.

علي: تدلل شاحي راح أجيب الكل ونجي نغير جو يمكم.

نادى عليّ ذا الوشاح: يلا رحال شعدك بعد كاعد امشينا نحضر لأن جماعة كلها منتظرتك فاتتك هواي شغلات ماشايف كعداتهم وشقاهم وميانتهم.

رحال (عمر): يلا اني هم تعبت من تجوال لوحدي خليني أتونس وياك بعد الدنيا اتصير مستقر لنا.

عدنا إلى الناصرية التي أصبحت بعد الأحداث موحشة وديارها مظلمة، كل بيت فيها فاقدٌ ضحكة أحد أفرادها.

بينما كُنا نمشي رأيتُ دُكان أبي حنين، نظرتُ إلى شاحي قائلًا له وصوتي يملؤه الحُزن والحنين:

-كنت آكل وأترك الحساب على حسين فيصل حتى اجتمعنا، وصوروا فيديو فقلت فيه: شبيه أبي علي؟

قالوا: راح يشتري جسكارة من وراك.

ضحِكتُ من قلبي في ذاك اليوم وذاك الموقف، لم أكن أعلم بأنني سأمرُّ من هُنا يوميًّا من دون حسين فيصل، مِن دون أن أكون خلفه على الدراجة الهوائية ذاهبين إلى مقهى الأدباء، أو أن نذهب لأمسيات ذي قار الشعرية، أو حتى كُنا مسافرين إلى بغداد نترك في شوارعها ذكريتنا، وعلى كُل جِدار فيها بصمة لنا، ونلتقي وننشأ فيها وسط ضحكاتنا، لا نؤذي ولا يؤذَى أحدٌ مِنا.. كُنا بسطاء للغاية، وأردنا أن نعيش هكذا ببساطة فحسب.

ذو الوشاح: لا عليك رحال، لا عليك، حتمًا ستبقى ذكراك مُخلدة في كل مكان مررت به، كما قلتُ ذات يوم "واليه بكل گلب متعوب تذكار"

صار كل قلب يتعب وما يتعب يذكرك ويحن لأيامك وحتى لو ماكان شايفك.

-عمر: أحيانًا أمر بِـجانب حسين أراه لا يخاف أن يقتله أحد التبعية أو حتى أن يُصاب بفايروس كورونا، أخاف عليه، ولا أقبل أن يكون مُحاطًا باليأس بسببي، ألا يُخالج قلبه شعور غير الفرح، ولكنه جالس قرب قبري يناجيني، وكأنه ليس صديقي حُسين الذي أعرفه؛ فكل شيء فيه قد اختلف، صوته، شكله، حتى طريقة حديثه، تغيّر.. تغيّر كثيرًا ولم يبق بِـقربه أحد سِوى ذكراي.

يقول لي: أنت الذي تقضي أيامًا هانئة بمأواك الأخير، وأنا هُنا أعد الساعات والدقائق منتظرًا ساعة الرحيل حيثُ أنت، كُنتُ أظن يا رفيق دربي أن أقسى ما قد يُصيب المرء هو الموت، لم يخطر ببالي يومًا أن البقاء دونك أقسى بكثير من الموت.

-ذو الوشاح: قدرك مكتوب وقد جف عنه القلم، كُل ما عليك الآن أن تتقبل أنك رحلت وتركت خلفك كُل أحبتك في حفظ الله، والله سيمسح على قلوبهم بلطفه لا تقلق.

أومأتُ له برأسي وأكملنا المسير حتى وصلنا إلى المخيمات، رأيتهم يُعدون العشاء وكُل واحدٍ منهم مشغول بمَا في يده، حتى جاء أحدهم وكان يغلب على صوته الخشونة وضخامة جسم تعطيه قوامًا قويًّا، سألني عن خاتم العرس.

قَلتُ له: ليس بحوزتي ولم أره.

فقال له شاحي: أبحث عنه هُنا وهناك، رأيتك تضعه على تِلك الطاولة الوردية تِلك.

سألت شاحي عن هذا وقلت له: عندما ذهبت إلى علي اللامي رأيتُ عنده خاتمًا أيضًا، ما الخطب إذن.

-ذو الوشاح: اسمع يا رحال، كُل ما يحدث هنا مختلف تمامًا عن دار الدنيا، فقط أكمل مشوارك بِـراحة، لا ظُلم هنا ولا وجع، خلا وجع الشوق للأحباب وهو ما يؤذينا، وأكثر ما يكسر الإنسان حبه لفتاة، وينتظر كثيرًا كي يتزوجا وأن يربطهما خاتم وهذا الخاتم قد قُطع بالموت، ولكن ما لم يستطع أن ينهيه الموت هو الحُب والذكريات، على الرغم من مرارة الفراق.. وهذا بالضبط ما حدث لعلي اللامي، وعلي العصمي، أخذوا خواتمهما معهما ليكون على الأقل مؤنسًا حين يجتاح الشوق كيانهما.

-رحال: رأيت تشييعه ولم أكن أعلم كيف قُتل، كنتُ حِينها أحاول أن أشبع روحي من أحبابي، رأيت أخاه، يندب أخاه العريس المقتول الغارق في دمه بدلًا مِن أن تغطي الحناء يديه.

ذو الوشاح: أجل، فنحن يا رحال نلبس الأبيض للَّحـد، قبل أن نُزف لعرائسنا، عليّ العصمي اغتيل فقط لأنه وأخاه ساهموا في التظاهرات ولم يهابوا الموت أبدًا.

عمر: يبدو أن الاغتيالات هي حلهم الأمثل لإسكاتنا دون أن يعلموا من أنت وما أنت فاعل.

ذو الوشاح: هذا البلد ما حد يحبه بكدي، بس هم ملينا ناس ما تخاف الله وما عدهم ضمير، متنا احنا وحيموتون ورانا وهسه يلا كووم ترى جعت يا عيوني.

تناولتُ الطعام معهم في وسط حديث شائق على ما سيحدث بعد أن تعود ثورة تشرين، أستنجح؟ أم أن صفوفهم ستزداد ويكبر العدد كما صرح عبد القدوس قاسم أنهم إن عادوا هناك ستقع مجازر كُبرى، ولن يتوقفوا عن القتل، ولن يرأفوا بأحد مهما كان، نحن فقط بحاجة إلى علم يرفرف في سمائنا وسط قلوبٍ تنبض بحبه من أيّ أسماء أخرى.

قالوا: شباب، هيا لنجتمع، سمعتُ المتظاهرين ينشدون عديدًا من الأناشيد، تعالوا نغيّر أجواء الحنين وأجواءنا المشحونة بالتفكير والهم.

جلسنا بشكل دائرة، يقف في مُنتصفنا شابٌ اسمه مؤيد محمد، رافعًا يديه ويلوح بفرح.. خلونا نموت بذي قار.... يهواي موت بلندنك

ونحن نصفق ونردد لاي لاي لاي لاي وصرخت أنا ياريحة الناصريه ترد الروح

فقاطعني بصوته الخلاب سلام علي شميل

هلا يمه هلا فوك فوك عالي الصوت

حسون يا حسون بلكت تشيل النون هلا يمه هلا

تحس انا بحالي مو شاف دلالي

يلشايل التابوت مر بيه أريد أموت

هلا يمه وهلا من رحت يالغالي

مو شاف دلالي هلا يمه وهلا.

لا تسمع مِنا سوى أصواتٍ تنشد وكأنها سمفونية حُب للوطن، كأنها أغانٍ ألَّفها عجائز القُرى الشعبية وشفاه تعزف أفضل من أيّ الآلات الموسيقية على الأطلاق.

قال أحمد فاضل: هاي سمعت الشباب ينشدونه على جسر الفهد بأيام مهلة الناصرية.

جلستُ معهم وهم ينشدون وأردد: يا الله، كم كانت أيامًا مميزة، أيامًا واجهت كُل من أساء للعراق وكأنها تقول بأننا شعبٌ يرفض أن يُهان.

تهالكت الأرواح من فرط التعب، وأصبح النوم هو الملاذ لنا لنهرب له من كُل شيء يبعدنا عن ألف شعور لا نريد الشعور به.

بعد أن توجهنا للنوم، وارتاحت أجسادنا من الهُتاف والإنشاد، استيقظنا لِـنُكمل تجهيز الحفل المُرتقب، جلستُ بِـمعزلٍ عنهم أفكر بِـمَا سيحدث، فمر شخصان، أحدهما يرتدي الكمامة، والآخر لا يرتدي، فكانا يتحاوران مع بعضيهما، فقال أحدهما لصاحبه:

-مّنذ عِدة أشهر، ونحن في انتظار العلاج لهذا الفايروس، وإلى الآن، لا شيء. أتعتقد بأنه عقابٌ من الله؟

رد عليه: يا صاح، وكيف لا يعاقب الله نفوسًا سفكت الدماء وزهقت الأرواح؟ كيف لا ينتقم الله لِكُل طِفل ينتظر والده كل مساء ولا يعود، ولِكل امرأة تحملت مصاعب الحياة وحدها، ولكل أم ثُكلت، أتظن بأن هذا قليل؟ أتذكر من مات بحادثة العبَّارة؟ وكيف ذهبت أرواحهم بسبب سوء الإدارة وحكومتنا المبجّلة التي تجعلنا نذهب للموت، حتى وإن كان مقصدنا أن نتمتع بيومنا ونعيشه كما يعيشه الإنسان السعيد. وكيف ذهب شباب سبايكر، وكيف انتصرنا عليهم بعمليات تحرير الموصل التي ضجت وعجت في تلك الأثناء، وأصبحنا جميعنا نردد «أجيناكم بالبايسكل الا طحين». وماذا فعلت دولتنا غير أن تجعلنا نموت وتسلب منا حقوقنا. كيف لا يعاقبنا الله على هذه الأفعال الشنيعة..

رد عليه صاحبه: أتذكر كيف مات الحُسين بن عليّ؟ خرج كي لا يُهان وألا يُذلّ، ولكنه تعارض مع من يمتلك زِمام الأمور، فما حدث إلا أن تم رفض المُبايعة وألا يخضع لطغيانه، وخرج لمقاتلته وتم قتله ومثلوا بجثة الحسين ومن معه، وهذا بالضبط ما حصل مع الثوار، حيثُ مثلوا بِنا أمام الكاميرات مُفتَخِرين بقمعهم، والمجازر التي افتعلوها ابتداءً من الرابع من أكتوبر كي لا يتقدم الشباب للتحرير وجسر الجمهورية، وكثيرٌ من المجازر التي تلتها.

-أوووف صديقي أووف، ما بقى شي ويجي محرم وترجع الشعائر الحسينية وأحنا بعدها نرجع لثورتنا، وااللي راح ترجع أقوى وننتصر.

كنتُ أستمع لكل ما يقولانه وأحدق في كُل تفصيل فيهما، وأردد بأن عودة الثورة ستكون أقوى بفضل الشباب التي لا يهمها شيء سوى أن ينعموا بقسطٍ من الراحة في هذا البلد، فكثيرٌ مِنا علمَ معنى أن يكون للمرء وطن، من بعد تشرين أيقظت العيون النائمة ونطقت الأفواه المُخرسة. كما سمعتهم يقولون بأن لم يتبقَّ كثيرٌ لحلول شهر محرم، وستبدأ أيام الخدمة الحُسينية. ولكن كيف سيتم ذلك والمساجد وكُل المجالس معطلة؟ مُنذ أن بدأ انتشار هذا الفايروس، ولا صلاة تُقام، ولا دعاء يُذاع من مُكبرات المساجد.

أغلقت الكعبة المُشرفة، واصطفى الله من البشر القِلّة كي تزوره في بيته، أطهر القلوب توجهت له بالدعاء والتضرع، فيا رب ارفع الغمة عن هذهِ الأمة.

ذاك الرجل الوحيد الذي طافَ حول الكعبة، انتقاه الله كي يكون قدوة البشر بصفاء القلب وحبه لله. قادني الصمت لأيامي الدنيوية حين كنتُ أتجهز لعاشوراء، وأذهب لِـخدمة الزوار إلى جانب حسين فيصل، حيث كُنا نقدم كُل ما لدينا من مأكل ومشرب وكل الوسائل التي قد يحتاجها الناس وهم يسيرون في طريق الحُسين، فالحُب الحُسيني قد جرى بداخلي كالدمِ في الشريان.

كنتُ أتلذذ في تِلك الأيام وكل ما فيها من روحانيات وذكر والقيمة الحسينية التي تفوح رائحتها من كُل فرع وزقاق ومِن كُل منزلٍ عراقي، ترى كُل التناس يجوبون بين المناطق والأزقة لكي ينالوا شرف الخِدمة. نسير وحب الرسول في صدرنا يكبر نردد «اللهم صلِّ على مُحمد وآله محمد». ما الذي دهاني الآن؟ أوجاعي تطغى عليّ ولا أقاوم تدفق سيلها عليّ طالبًا مِنها أن تبقى في داخلي بدون وجع أو صخب، ذكرياتي التي تحاصرني مِن كُل صوب وكأنها بركان سينفجر عليّ في أيّة لحظةٍ ممكنة.

تذكرتُ حين كنتُ أسير برفقة حيدر، وحين طلبتُ مِنه أن يلتقط لي صورة بـِلوني الأبيض والأسود، وأن تكون جميلة كي أستطيع مُشاركتها على مواقع التواصل الاجتماعي. كنا نوثِّق لحظاتنا معًا ونصور كُل منطقة نقطعها، تذكرتُ في أول مرة أخذني فيها يا والدي للحسين، وعندما كنتُ لا أستطيع العبور، فحملتني على ظهرك وسرت بي، وفي كل مرة أقطع تِلك المنطقة، أتذكر ذلك الموقف بحنين بالغ ويستمر أصدقائي بالتقاط صور فكاهية، ويلقون عليّ الكلام حتى أخرج من حنيني وحبي لِتلك اللحظات.

وفي آخر مرة سِرنا فيها إلى الحسين قال لي حيدر: عمير، تتذكر الصورة اللي أخذناها بالأول ابتدائي بعدها عندك؟

عمر: أي، أكيد أتذكرها وبعدها موجودة عندي محتفظ بيها كلش غالية عليه هلصورة.

حيدر: الله عليك عمير أنطيني ياها أحتفظ بيها اني هم.

عمر: لا، ولك ما انطيك ياها حخليك تشوفها من بعيد، وهسه تعال نأخذ صورة مرتبة تبقى هم للذكرى وهم نوثق بيها مسيرتنا.

لابُد أن حيدر حصل على الصورة الآن، أو رُبما تؤنس أمي وتهون مصابها بي، ستعود كُل الأيام والليالي واللحظات، وحتى الأماكن وعِطرها سيعود، وستكون كما هي، ولكن من سيعيدنا نحن، سنبقى ذكرى فقط وإلى الأبد. أتذكر صوت أمي وهي تصرخ أمام صورتي وتردد:

عمرررر يمه وينك السنة بعاشور.. يمههه عمرررر فدوة لعيونك يمه عمرررررر.. يحبيبي يايمه ماتخدم وي اخوانك... مشتاقتلك يمه ارجعلي يمه...

صوتها كان يمزق أحشائي، هذه المرأة التي علمتنا الصلابة، الآن أصبح نحيبها في كل مكان وتنوح في كل زمان.

صُراخ يُعيد قتلي من جديد، وكأن صوتها رصاصة اخترقت قلبي وأوقفته عند نطقها لـ«يمه عمر»، آه يا أمي ما تفعلين بي؟ أنا الذي أردتُ إسعادكِ، أراكِ الآن تبكين! وددتُ لو يُعيدني الله إليكِ لحظات أشتم عبيركِ وأتنفس عبق ملابسك، أعلم بأنني أثقلتُ كاهلكِ، ولكني واللهِ يا أمي مُجبر، والله يا أمي آسف بـِحق.

وها قد حل عاشور عائدًا مِن دوني ومن دون كثيرٍ مِن الشباب، عاد هذهِ السنة والقلوب مُتلهفة لزيارة الكعبة، وكُنّا نود أن نكون من حجيجها، ولكن الموت أرادنا أن نطوف بالمقابر، وأن نبقى روحًا بِلا جسد.

صدرَ صوتٌ مِن خلفي قائلًا:

-تجلس وحدك وعيناك تغرقان مِن الدمع، إذن موضوعك الحنين.

استدرت برأسي ورأيتُ «ثائر كريم الطيب» يقف خلفي، وابتسامة عريضة تشبه النسمة الربيعية ترتسم على وجهه.

قلت له: أجل، ومن لي غير أهلي وأصحابي؟ تعال واجلس معي فالمنظر من هُنا جميلٌ جِدًّا، نهر الفرات له رؤية خاصة من هذا المكان، إنه يتلألأ ويُضيء وكأنني أراه لأول مرة.

ثائر كريم الطيب: نهر الفرات ساقي الجنوب ومنبع شهامة العراقيين، امتزجت مياهه بالثقافات الجنوبية العريقة، حيثُ الكرم والجود وحسن الضيافة، إن تجلس قربه وتسرد له ألمك، فاعلم أنك ستنهض قويًّا صامدًا مِثله تمامًا، فقد حمل ما قد حمله في السابق من هموم ومشقات تماما كالعراقيين، جُزءًا لن يتجزأ منهم، على الرُّغم من جهل الناس بالجنوبيين إلا إنهم يحملون أصالة، وكثيرًا من غيرة العراق، ومن سلاسة دجلة والفرات ما سلسل من لِسانهم من لهجة وكلمة الجا الأصيلة، جنوب الكرم لا يضاهي ما في هذهِ البلاد بأكملها.

رحال: نحن نعيش بالثقافة، ونموت ونحن في مستودع العلم، نبحث عمّا ينفعنا.

ثائر كريم الطيب: يجي يوم ونشوف العراق يتغير ويصير الحال أفضل وكل المناطق وكل الطوائف واحدة وقلب واحد ويعلى بالسماء اسمنا عراقين قلبا وقالبا.

فصفق أحدهم مِن خلفنا قائلًا: كم أحب الفلسفة الجنوبية! كما أن حديثكما ممتع للغاية ومثقف وفيه مسحة جنوبية ناصرية قوية جياشة، ولكني كرجل بغدادي أود أن أخبركما أنكما متمسكان بالعادات والتقاليد التي في بعض الأحيان لا فائدة منها، ولكن لديكما طباع التي تجعل منكما رِجالًا لا تهاب شيئًا، ونساءً قدوة لغيرهنَّ مِن النساء.

ثائر كريم الطيب: آه، الخبير والباحث المتميز هشام الهاشمي، أهلًا بك بيننا، كما أننا لا نقول بأننا مُتمسكان بالعاداتِ والتقاليد، ولكننا نحنُ من صنعناها وبقينا محافظين عليها سائرين بها.

هشام الهاشمي: وهذا ما أقصده، أن نتخلص من الأشياء البالية التي لا جدوى منها، فقط ترجعنا للوراء، إنني أجريتُ أبحاثًا كثيرة في المناطق الجنوبية، حيث إن عديدًا من المنازل فيها تعاني من الجهل وانعدام التعليم، حيث إن هناك أعدادًا مُخيفةً من الفتيات اللاواتي لم يزرن المدرسة حتى، وفي المقابل وجدتُ أن العاصمة العراقية بغداد فيها من المناطق والعوائل التي تتمسك بالعادات القديمة، والتي مِن شأنها أن تُميت البلد بسبب قلة الوعي وكثرة الجهل.

لهذا نحن لا نقول أن الجنوبيين هم وحدهم من يتمسكون بعاداتهم، فهناك عديدٌ من المناطق العراقية فيها تمسك بالعادات القديمة البالية، وهذا ما نحتاج أن نسلط الضوء عليه، وأن نزرع بين الناس المعرفة، والتفريق بين ما علينا اتّباعه وما علينا نبذه.

قاطعتهم بصوتي: أشعر مِن خلال حديثكما بأننا نحتاج لثورة فكرية شاملة.

ردًّا عليّ بصوتٍ واحد وكأنهما مُتفقان على جوابٍ واحد:

-بالضبط هذا ما نحتاج إليه، ثورة فكرية تغير كل ما يحدث الآن في العراق.

تقدم نحونا ذو الوشاح وبرفقته أحمد عبد الصمد ومؤمل يوسف: يبدو بأنه اجتماع الفلاسفة، الباحث والناشط والإعلامي والمعلق الرياضي رحـــال عمر السعدون.

علَا صوتُ ضحكاتنا ونحن نقول:

-تقصد الباحث والناشط وكل الأسماء التي اغتيلت؟

رد عليّ ثائر كريم الطيب: تعرف بأن الأسد لا يستطيع أحد الوصول إليه، فيخططون دومًا للغدر به مِثلنا تمامًا.

ذو الوشاح: لم يدعوني أستمتع بهم وأباغتهم بحركاتي، قتلوني في بداية الثورة وكأنهم يعلمون بأنني التهديد الأكبر لهم ولسياستهم الفاشلة على الرُّغم من مشاركاتي في كل السنين السابقة، ودرايتي بهم، إلا في المرة التي قتلوني فيها، حتى ينهوا كل شيء بدأته، ولم يعلموا بأن موتي ثورة لبداية غاضبة.

قال مؤمل عبد الصمد: إنْ رحَلنا فسيخرج غيرنا ألف «أحنا هواي شيخلصنا، قناصاتهم ما تُسكتنا ومايكدرون يوكفون سيل الثوار خلفنا، أحنه زلم سباع ما نهاب الموت”.

ذو الوشاح: هيا يا شباب، الحديث يطول ولن ينتهي، ولنا في الغد موعد مع عروس تشرين.

أشعر بأنني أنتظر الفتاة المُرتقبة على نار وجمر، فنحن نتجهز لقدومها منذ أشهر.

ذو الوشاح: ستتعرف إليها يا رِحال، هيا يا شباب، أمامنا يوم طويل، لنرتَح وندع اليوم لطيف، وندعوا بأن يكون الغد سعيد.

ذهب كُل واحدٍ مِنا إلى مكانه لينال قِسطًا مِن الراحة، وبأن نختلي بأفكارنا وخيالنا، وكُلنا نرتقب الغد، ونحن نفكر من هي «عروس تشرين”؟ كيف ستكون وما اسمها؟ وما الذي أتى بها إلى هُنا؟ كُلها تساؤلات سأعرف إجابتها غدًا.

"كانت تنمو، في أعماقي، غابات مذهلة. كنتُ أحرصُ على أن أزوّدها بما في الخيال من ينابيع، ظِلال، وأثمار، لكن خططي تبدّلتْ حين وُلدتُ كإنسان.."

عبد العظيم فنجان

فزِعتُ صباحًا على أصوات الشباب وهم يحاولون إيقاظي للعمل والتحضير لحفل الاستقبال الكبير.

خرجتُ من حُجرتي وأنا أراهم منهمكون في أعمالهم، أضواء ملونة في كُل مكان وبالونات وكأنه حفل زفاف، هشام الهاشمي يقسِّم العمل على الشباب تلافيًا لأي خطأ، وذو الوشاح يجهز لنا الثياب، وعبد القدوس يتأكد مِن العمل المُنجز.

جاءني ذو الوشاح قائلًا:

-هيا عمر، عليك إعداد المشويات أنت والشباب.

أومأت له دلالة على «حسنًا، سأتولى الأمر لا تقلق».

عملنا طول النهار وبشغف ونحن نترقب مجيء العروس، وفشلت جميع محاولاتي وأنا أبحث عن خيط يدلني على اسمها، ففي كُل مرة أتقرب من ذي الوشاح كي أشبع فضولي وأسأله من أين هي؟ ومن أيّة عائلة؟ وما سبب انضمامها وكيف؟ لكنه يُجيب بثلاث كلمات فقط:

-ستعرف في التاسعة مساءً.

انتهينا من تجهيز كُل شيء، وذهبت لتجهيز نفسي، وجدتُ بدلة سوداء اللون غاية في الجمال، وأكمامها التي زُيّنت ببعض الأزرار المعينية الشكل، ارتديتُ قميصًا أبيضَ اللون مع حذاء مِن الجلد الأصلي، وضعتُ بعضًا من العطر الموجود، ولم تكُن رائحته عادية أبدًا، كانت من أجمل الروائح التي مرّت على أنفي، عِطر مميز للغاية، ألقيتُ نظرة أخيرة على نفسي، وكيف بدوتُ أنيقًا وجميلًا، طرحتُ سؤالًا: مِن أين لنا كُل هذا؟ وكيف حصلنا عليه؟

يبدو أنني أستشعر الحياة مع الله، وكيف أحيانَا حياة جديدة مختلفة، ننعم فيها من كُل ما تطيب له الأنفس، فضل الشهادة عظيم.

أطرقتُ رأسي أرضًا، وارتسمت على وجهي ابتسامة حزينة، وخرجتُ بهندامي الأنيق، فاستقبلوني جميعهم بـكلمة "أجانا عريس ذي قار"

كانوا كأنهم الؤلؤ من جمالهم، نظرت لهم فردًا تلو الآخر.. عبد القدوس وهشام الهاشمي وثائر الطيب وذو الوشاح وعلي خالد الخفاجي، يجتمعون حول الطاولة ويتحدثون، وأحمد المهنا وكرار عٌدي عالم الياسري يُجهزون الطعام.

مؤمل وحسين أحمد الدراجي ومقتدى ميثم كاظم الحُسيني يغنون:

بين الجسر والساحة.. الوطن عالي جناحه

رادوا يمسحون اسمي بس كتبته المساحة

إني الشعب يالتسأل.. وبكلهن إني الأول.. إني القفل على الغيرة والضيعو مفتاحه.

وعباس إسماعيل مِن الصويرة وبِرفقة شباب يصفقون ويتمايلون على النغم الثوري ذاك. قد متنا بأرض العراق بــطوائف مختلفة ومحافظات متفرقة لنعيش بعدها مُتساوين في كُل شيء، لأن أصلنا واحد، وربنا واحد، خُلقنا مجردين من أيّ أسماء، وحين نموت نعود لـِكرَّتنا الأولى ناطقين الشهادة، وقلوبنا بالإيمان عامرة. وفي زحمة الأحداث خفتت الأضواء، وهبّت ريح بعطر المسك، وارتفعت غيوم بيضاء في الجو، وظهرت خلفها عروسنا المنتظرة تسير بفستانها الأبيض، وبخطوات وقار وهيبة، أمتلأ المكان روحانية غريبة بِطلتها، وأُشعلت في الجو بهجة لم أشهدها مِن قبل، واأسفاه على شبابك المغدور به.

سارت بيننا بفستانها الأبيض الطويل، كانت شخصية محترمة مُحبة للعراق، هي من كانت طبيبة ومُدربة، من وقفت بوجه الظلم، وحاربت ما كان يحدثُ في البصرة من مآسٍ، من لطخ قلبها الأسى على حالنا المضني، هي من قادت المسيرة وصاحت:

ما يهمني حر ولا برد أنت منو؟

أني الرفض كل الدول أنت منو؟

أني الحسيني المن صدك أنت منو؟

أني الولائي للوطن أنت منو؟

أني البطل وابن البطل أنت منو؟

أني الما منتمي لحزب أنت منو؟

كنتُ أتحرق شوقًا لرؤية وجهها، فإلى الآن ما رأيته مِنها فستانها الطويل وحِجاب رأسها، واللآلئ التي تبرق حولها، ارتفع صوت حولنا يقول:

-رِهام يعقوب صارت بينا.

ألقت علينا السلام وابتسامة على وجهها تقدمتُ مِنها وقلت:

-لا تعلمين كم كنتُ فضوليًّا لمعرفتكِ، أهلًا بيننا أيتها الشجاعة.

ردت عليّ رِهام يعقوب: عمر السعدون، كم كان موتك محزنًا لنا، لا تعلم ما حصل مِن بعدك، سعيدة لأنني استطعتُ اللقاء بأيقونة ثورية مِثلك.

عمر: سمعتُ بأنه تم اغتيالكِ مساءً، في البصرة بسيارتكِ التي أمست مليئة بالدماء، تاركة خلفكِ ذكرًا معطرًا بالعلم والمعرفة المطرزة بالشجاعة، مسيرة علمية ومهارات رياضية متميزة اختفت برصاصة، آسف لـِذلك.

ردت ريهام: لا تتأسف، فلا شأن لك بما حدث، ولكن أنا فخورة جدًّا بنفسي لأنني بينكم الآن.

أنهينا حديثنا وذهبنا لتناول العشاء، كانت المائدة تحتوي على جميع أصناف الأكل التي كنا نحبها ونفضلها. والحديث الذي لا ينتهي عن أحوال أهالينا، وأحوال بلادنا، وأحوال الدنيا التي لا تنتهي مآسيها. وصوت قهقهاتنا التي تصدر منا لتُخبّئ ألف حزن بجوفنا. حتى دخل اثنان علينا، أحدهما كان اسمه ضياء والآخر عبادي وقالوا لنا:

- اتأخرنا عليكم وبلشتو الحفل بس الحفل من دونه مثل البيت بلا ضوى.
فسحنا لهم المكان وكنا مرتاحين لا نخاف مما سيحدث فنحن الآن برعاية الرب..

كلماتي المليئة بالنذائر، والنُذُر، ومفاجآت أيّامي.
هي الأثقَل من تُراب قبر أبي المجهول في مسقط رأسي.

سركون بولص

يا أبي، هذا كل ما حدث منذُ أن فارقتك حتى الآن، وها أنا بجانبك الآن، ألهم شوقي بدفء حنانك.

والد عمر: يا ولدي، كنت أترقب مجيئك على أحرّ من الجمر، ولكن يا عُمر، أخبرتني بِكل ما حدث ألا شيء واحد.. كيف أتيت إلى هنا؟ لم تشرح لي هذا الأمر بالتفصيل؟

نظرتُ له وأنا أفكر كيف سأصيغ له حادثة موتي:

-قد ثار الشعب يا أبي، وأصبح كله تشرين، كُل المحافظات خرجت للتغيير وبأن نكون شباب الغد ويد التغيير، نردد بصوتٍ واحد «نازل آخذ حقي" خرجنا مطالبين بوطنٍ عادل خالٍ من الظلم والفساد وأكل الحقوق. لزِمنا الرِّباط في ساحة الحبوبي ابتداءً من يوم الخامس والعشرين مِن أكتوبر سنة ألفين وتسعة عشر، علت هُتافاتنا في الساحة، أغلقنا المقرات وخرجت آلاف المسيرات مِنها «ثورة القمصان البيضاء" خرج فيها كُل طلاب المدارس بمختلف المراحل بزيهم الأبيض، وخرج أيضًا طلاب الكليات الطبية والهندسية والتقنية، خرج كل الناس تحت شعار «نريد وطنًا". كنا نصرخ مطالبين بالعدل ونصرخ بمقولة «ماكو وطن ماكو دوام» إلا إن القمصان البيضاء سرعان ما تعرضت لكثير مِن القتل والقمع خِلال تِلك الأيام، قُتلوا دون معرفة من المقتول، الصغير والكبير، الشيب والشباب، البنات، وكل من يعترض طريقهم وكُل من طالبَ بــوطن، تخيّل في أول بدايات الثورة استخدموا الدخانيات، واستعملوا القناصين لاقتناص أي شخص أمامهم بريء مطالب بالوطن. قطعوا عنّا خدمة الإنترنت، وقطعوا تواصلنا مع باقي الثوار في المحافظات المنتفضة، ولم نعد نعلم ما يحدث معهم! من منهم ما زال على قيد الحياة! ومن غادرنا مستشهدًا؟

بعدها بدأت كثير مِن الحملات لتزيين الساحة برسومات وعبارات ثورية ذاتَ هدف، وتنظيف كل مكان بقينا فيه، نُعلّم الناس والعالم بأننا شعبٌ قويٌّ واعٍ. ثورتنا ثورة وعي وثقافة، ليست ثورة تخريب وإفساد، كنا نجلس في قارعة الطريق نردد «ماكو وطن، ماكو دوام» «قناصاتك ماتخوفنا"، وكان بعضهم يعبر عن الألم الذي يخيم على قلبه بكلمة «ها انه أبكي من شدة العراق في صدري". وكنا حين يسأل أحدنا الآخر عن حاله، يرد عليه بجملة «عراقي كلش عراقي"، وقفت كُل أشغالنا، فنحن لن نعمل ولن ندرس ولن ننجز أعمالنا حتى تتحقق المطالب، البسطاء بأحلام بسيطة، حياة سالمة وأحباب مجتمعين ولا شيء آخر. وكنا نجمع المساعدات حتى نستطيع أن نكمل ما بدأناه من انتفاضة. وجمعنا أصواتنا ليكون صوتًا واحدًا يقول «الخائفون لا يصنعون الحرية». فما كان منا إلا أن نعيش بالساحة الحبوبي متأملين تغيير وإقرار قانون الانتخابات وغيرها من مطالبنا المشروعة. حيث عجزت دولتنا عن إرجاعنا، ولم يستطيعوا شراء أصواتنا بأثمن الأسعار. فكانت كل مساعيهم سدى.

حتى وصل لنا نبأ مُداهمة ليلية لِـساحة الحبوبي لقمع وقتل المتظاهرين، في محاولة فاشلة مِنهم لإخماد نيران الثورة في الناصرية بشكلٍ كليّ، لكننا رِجال رُبات دجلة وسُقِينا من ماء الفرات، تعاهدنا بأننا سنقاوم وسنبقى إلى النهاية يدًا بيد حتى نحصل على وطن، ونسترد حقّنا.

أذكر في يوم المباراة بين العراق وقطر اتصلتُ بأمي وقلتُ لها بــرجاء:

-يمه شديلي شيلتج اليوم لعبة العراق وقطر ادعيلنا نفوز.

ردت عليّ طالبة: أدعيلكم يمه بس ارجعلي للبيت.

قُلت لها: يمه ما أرجع لو المظاهرات خلصانة لو أنا بالعلم ملفوف.

أغلقتُ هاتفي وعُدتُ إلى حماستي أنتظر بِدءها، فقد كنتُ أحب جلال حسن كثيرًا، فكان المفضل لديّ على الإطلاق.. "گـليبي وياكم يا أسود الرافدين".

أتاني حسين فيصل فجأة وعلى وجهه علامات لا تُفسر قائلًا لي:

-عمور تجي وياي أمي بالمستشفى وحالتها خطرة، بس تتحسن شوية نرجع.

شعرتُ بالحزن في داخلي عليه وعلى حال والدته لكني قُلتُ له:

-لا، لن أذهب سأبقى في الساحة، اذهب، والله يشافيها.

فقال لي حسين فيصل: لا بأس، سأذهب لوحدي، ألتقيك غدًا.

ناديت خلفه «حسين تحبني"

ابتسم بوجهي وذهب بعيدًا عن ناظري...

تنقلتُ في ساحة الحبوبي، وأنظر في كل جوانب ومنطقة فيها أتمعن النظر.

رنّ هاتفي، فكان اتصالًا مِن «علي ضياء» يقول فيه:

-نروح نشوف اللعبة سوى.

قلتُ لعلي ضياء: هسه أمجد عطوان يرفع أيده ويدعي مثل ما دعا بلعبة إيران وفزنا ذيج المرة هم نفوز ببركة دعائه.

تبادلنا أطراف الحديث قبل بدء المباراة، كأنها تلطيف للجو قبل فقدان الأعصاب قبل كُل هجمة حاولوا فيها اختراق شِباك مرمانا من الفريق المقابل، وكانت النتيجة فوز العراق على قطر 2-1 كان فرحًا عظيمًا، فرحة تغلغت أعماق نفوس العراقيين المتعطشة للفرح والسعادة.

ودعني علي ضياء عائدًا لِمنزله قبيل ذهابه قلتُ له:

-تعال لنلتقط صورة ونضعها على رفوف الذكريات، فاليوم مميز فدعنا نلتقط صورة مميزة بابتسامة نصر.

التقطت صورة معه، وكانت علامات النصر على وجهينا تظهر. ذهب هو وذهبتُ أنا إلى خيمتنا، وجلستُ أترقب أيّ هجوم أو مداهمة لنا، فكل ما يفعلونه هو إفسادٌ لفرحتنا مهما كانت صغيرة، وكنتُ في الوقت ذاته أتصفح مواقع التواصل الاجتماعي بالرغم مِن خدمة الإنترنت الضعيفة والمزعجة. دقت الساعة الثانية بعد مُنتصف الليل، فدخلوا علينا بالمدرعات وساروا بيها على المتظاهرين وهم نيام على جسر الزيتون، وكان إطلاق الرصاص عشوائيًّا دون أيّة خطة أو هدف محدد، فقط القتل والقمع، فزعنا جميعًا إلى الساحات، وأتى إلينا الشباب والأهالي مساندين لنا لتصدي هجومهم ورصاصهم القاتل. عِطر البارود، والدماء تملأ المكان، تشاهد أجسادًا غارِقة في الدماء، مجزرة جميل الشمري التي لا يمكن نسيانها، وستُخلّد بأنها أبشع ما مر على تاريخ ذي قار،

يظنون بأنهم سيخيفوننا بأسلحتهم الثقيلة أو قناصاتهم المُنتشرة على الأبنية حولنا، ولا حتى سيارات السلفادور أخافتنا لحظة، نحنا نقاوم ونواجه والله يُسدد خُطانا.

كانت أبهى صور التعاون حاضرة في تِلك الدقائق، فالشباب يخافون على أرواح أصدقائهم قبل أرواحهم، يحاولون الخلاص من القمع الذي خيَّم على المدينة وشبابها، لكنهم استدرجوا عديدًا مِنهم، حيث وقع لنا في ذلك اليوم سبعين شهيد! هل لك أن تتخيل أن يموت سبعين عراقيًّا خلال ساعات قليلة يا أبي؟!

دخلوا مِن جِهة حديقة غازي، فاتصل بي عليّ ليبقى مُرابطًا معي، ولكننا افترقنا، أنا ذهبت لحديقة غازي، وهو لم أعلم أين أخذه سيل الرصاص، وهناك أصبحنا نختبئ مِنهم ونقابل طلقاتهم بالحجارة، لم نكن نملك أي سلاح، فـشِعارنا السلمية، وبقيت سلمية إلى الأبد، خوفهم مِن صوتنا وإصرارنا على حقوقنا. في تِلك الأثناء رأيتُ «عباس ماجد» يُقتل أمامي، فـهرعتُ لأحمل جثته، حاولت رميهم بالحجارة، وأسمع صُراخ الشباب بأن أتراجع كي لا يُصيبني رصاصهم الحقير، ولكن قدر الله أقوى من أي شيء آخر، فقبل أن أهمّ بحمل عباس، استقرت رصاصة ضالة في كتفي وأصبحتُ أنا الشهيد التالي.

كتفي ينزف، غِبتُ ثوانٍ، ثم أفقتُ على أصوات صُراخ:

عموووور، عموووور، الله أكبر، الله أكبر. كانوا يصرخون «عموووووور الله أكبر، كتلوووووو دخيلك ربي كتللوووووو عموور.

أفقت وأنا في عالمي الآخر، لكنني بقيتُ مُتصلبًا في مكاني حين رأيتُ جسدي المليء بالدماء أمامها والناس تصرخ «توابيت ماكو شوفولنا توابيت". كان الطب العدلي ممتلئًا بالجثث وعويل الأمهات وحزن الإخوة والأصدقاء. حيث شاهدت امرأة عجوزًا تجلس عِند ولدها الشهيد تقول:

"حاجووا بلكي يكعد، حاجوا!. خاف زعلان عليه"

تبكي على فلذة الكبد وتعب العمر وقُرة العين، وفي الجهة المُقابلة شابٌّ يُمسك بهاتف الشهيد ويقولون له: «هاي أمه لا تجاوبها».

وآخر يبكي «ولكم أخوي مات".

يوم عصيب، يفتشون في جيوب الشهيد باحثين عن ما يدلهم على هويته فيجدون خمسمائة دينارٍ عراقي:

"ما بجيبه بس خمسمية وكتلو»

ومنهم من يقول: "هذا ابني مهدي"

"مابيه مجال يعيش".

"الناصرية تنزف دمًا وتزفُّ شبابًا إلى الجنة" يا ويلي كم كان المنظر وأصوات العويل يقطع نياط القلب.

كانت أشلاء الضحايا وبقايا الشهداء ودِمائهم على الأرض، المنظر مُروعٌ بحق، ولا تتحمله العقول، ولا يصفه الكلام، والقتل والتنكيل بِنا ما زالَ مُستمرًّا، شاهدتُ أمي وإخوتي وأصحابي يبحثون عني ولم يعلموا بأمر موتي، فرأيتُ أخي عليّ يبحث عني وعن أي شيء يدله إليّ.

وحين سألت أمي عني علمت بموتي فقالت لأخي:

-ها يا علي عموري ميت مو؟ وليدي مات؟!

فأجابها كاذبًا والدمع يغزو عينيه والعبرة تخنق صوته: لا يمه بس تصوب.

لم تصدقه فردت عليه: لا وليدي ميت أدري بي، هذا الصبح الأظلم اللي يمر عليه وما راح يمر عليه صبح بعدك عموري يمه.

هرعتُ إلى داخل المستشفى، رأيتُ حيدر حينها وهو يغلق هاتفه في محاولة لتفادي كلام رئيس عمله وتوبيخه له، حتى رد عليه:

-هاي بالطريق أنا.

أجابه: يا طريق عموري متصوب وبالمستشفى.

فسرتُ قليلا حتى وصلتُ إلى جسدي المُلقى على سرير الطوارئ والدماء تحيط بِه مِن كُل جانب، رأيتُ حسين فيصل يقبل جسدي ووجهي ويقول باكيًا:

"يا صاحبي مو جنة متفقين نبقى طول العمر سوى ليش تتركني بنص الطريق؟ والله من بعدك ما راح يمرني فرح، ولك عموري افتح عيونك وحاجيني سألتني تحبني.. ولك عموري أموت عليك.. لا ما تتركني وحدي عموري أكعد"

فاجتمع إخوتي وأمي حول جسدي فما عُدتُ أرى سوى أمي..

أبو عمر: بُني أعلم أن تركي لك وأنت صغير أمر قاسٍ، ومجيئك وأنت زهرة شباب وتركك للدنيا أيضًا قاسٍ.

انحنى عمر مُقبلًا رأسه ويديه أيضًا يقول له: أبي، أنت السند بعد الله، وأدعو بأن تكون فخورًا بابنك الشهيد. كنتُ أقلق على أمي، ولكن الله أرحم على عبادهِ مِنّا، وأنت هنا تهون عليّ فراق أمي وأحبتي.

قبله واحتضن جسده : حبيبي ولدي الغالي.

بعدها تساءل عن كيفية انتهاء المجزرة فقال: وكيفت انتهت؟

عمر: استمرت لـثلاثة أيام ما بين القتل والقمع الوحشي، والتي توزعت بين جسر الزيتون والبهو وشارع بغداد، حاول المتظاهرون الدخول إلى مديرية الشرطة للحصول على جميل الشمري ومحاسبته، ولكن أمهات الشهداء تركوا أحزانهم جانِبًا وهرعوا إلى الساحة لوقف الشباب والتخفيف من غضبهم بقولهن:

"فقدنا ولدنا وحطيناهم جوا التراب ما نريد انتم هم نفقدكم ونحطكم جوة التراب. الوطن محتاجكم عدلين، والشهداء محتاجين صمودكم وثباتكم حتى ترجعون حقهم".

فعادَ الشباب إلى ساحة الحبوبي، وعادوا إلى سلميتهم، ولكن بقيت ذي قار تنزف شهداءها والظلمة التي خيمت على أيامها لم تزل.

يا أبي توحدت صفوفنا ثم تفرقت مطالبنا، فتعالت أصواتنا وما زال مطلبنا واحدًا، والهدف واضحًا «نريد وطنًا"، فخرجنا بــفكرٍ واعٍ، فـجابهونا بالرصاص والبندقيات، وستبقى أيامنا تشرين حتى نحصل على وطنٍ.

النهاية

عمر سعدون





